بسم الله الرحمن الرحيم

المجلد ٦١

مؤسسة الصحافة والنشر

شعارنا الوحيد إلى الإسلام من جديد

البعث الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة

رجب و شعبان ١٤٣٦هـ

مايو ٢٠١٥م

العدد الأول- المجلد الحادي والستون

May 2015

ندوة العلماء

تأسست ندوة العلماء ودارالعلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع،وبين الدين الخالد الذي لا يتغير، والعلم الذي يتغير ويتطور ويتقدم ، وبين طوائف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية ، وأن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجدد، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر، وأن يزاد فيه، ويُحذف منه بحسب تطورات العصر، وحاجات المسلمين وأحوالهم.

الإمام العلامة الشيخ السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله)

أنشأها

فقيد الدعوة الإسلامية

الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى

في عام:١٣٧٥هـ -١٩٥٥م

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

مساعدا التحرير:

محمد فرمان الندوي

محمد عبد الله الندوي

المراسلات

البعث الإسلامي

مؤسسة الصحافة والنشر

ص.ب.٩٣ لكناؤ (الهند) الفاكس: ٢٧٤١٢٢١-٢٧٤١٢٣١ — ٠٥٢٢

AL-BAAS-EL-ISLAMI

MAJLIS - E - SAHAFAT -WA- NASHRIYAT P. O. BOX: 93 Taigor Marg, Lucknow. Pin:226007 U. P. (India) Fax: 0522-2741221,2741231

Mob: 9889336348 E-mail:nadwa@sancharnet.in

محتويات العدد

العدد الأول- المجلد الحادي والستون – رجب ١٤٣٦هـ- مايو ٢٠١٥م

❖أخي القارئ الكريم :

المجلد الحادي والستون — سعيد الأعظمي الندوي — ٣

❖الافتتاحية :

ما أشبه الليلة بالبارحة ! بين الحوثية والأبرهية — سعيد الأعظمي الندوي — ٤

❖التوجيه الإسلامي :

العاقبة للعرب والمسلمين — سماحة العلامة الإمام السيد ابي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله — ٨

رجب شهر الله الحرام — الشيخ الطاهر بدوي الجزائري — ١٣

شرح قصيدة الكواكب الدرية في مدح خير البرية — الدكتور غريب جمعة — ١٨

❖الدعوة الإسلامية :

الهارية إلى الله — السيدة فاطمة راحلة ، تعريب : عبد الكريم الهدوي — ٢٨

❖ دراسات وأبحاث :

جبال جزيرة العرب الساحلية وميادينها — العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي — ٤٩

منهج الاختلاف عند قدامى المحدثين — الدكتور عزالدين الندوي — ٥٨

❖ أعلام التاريخ الإسلامي :

الإمام الشاطبي وجهوده في العلوم الشرعية والعربية — الدكتور/ محمد يونس — ٦٦

❖من تاريخ الحضارة الإسلامية:

الترجمة العربية في عهد الرسول والخلافة الراشدة — الدكتور شامة فيصل بن أبي المكارم — ٨١

❖صور و أوضاع :

بين موقف وموقف — الأستاذ السيدمحمد واضح رشيد الحسني الندوي — ٨٨

شعارنا الوحيد : إلى الإسلام من جديد — محمد فرمان الندوي — ٩٢

❖إصدارات جديدة :

١) أهل الحديث في شبه القارة الهندية — قلم التحرير — ٩٤

٢) أضواء على تاريخ الحركة العلمية والمعاهد الإسلامية..... " " " — ٩٥

٣) الحكم الأخير للاجتهاد والتقليد " " " — ٩٦

٤) عدُّ الآثام المعروف بأحكام الأعضاء " " " — ٩٦

٥) أعلام غوفا مئو " " " — ٩٧

٦) حركة الجهاد في الحكم البريطاني في الهند : دراسة تحقيقية " " " — ٩٧

❖إلى رحمة الله تعالى :

١) الدكتور عبدالسلام الهراس في ذمة الله تعالى — قلم التحرير — ٩٨

٢) المؤرخ الإسلامي الشهير محمود شاكر إلى رحمة الله تعالى " " " — ٩٨

٣) رحيل والد الأخ العزيز عمر بن عبدالعزيز الندوي " " " — ٩٩

٤) الحاج محمد سعيد بني إلى رحمة الله تعالى " " " — ١٠٠

٥) فضيلة الشيخ الداعية ذوالفقار البهاكلفوري في ذمة الله تعالى — الأخ طلحة نعمة الندوي — ١٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلد الحادي والستون

أخي القارئ الكريم !

أليس مما يوجب علينا الشكر الجزيل لله تعالى ، والثناء الوفير الجليل عليه، إذا كانت مجلتكم العزيزة قد استكملت بمجرد توفيق من الله تعالى وتأييده العظيمين ستين عاماً من عمرها ، وقد أذن لها ربها أن تبدأ مرحلة جديدة ، وتدخل في الحادي والستين من بقية العمر ، إن شاء الله تعالى .

إنها سعادة كبيرة لأي عمل أو نشاط يكون نبعه الإخلاص لله تعالى ، ولا يراد به إلا ما أراده الله سبحانه و تعالى من خير أمة أخرجت للناس ، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد سارت مجلة البعث الإسلامي على هذا الدرب المختار ، وقد اختاره لها سماحة العلامة الإمام الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى – رئيس ندوة العلماء سابقاً – يوم عزم على إصدار مجلة إسلامية عربية ابن أخيه العزيز سعادة الأستاذ السيد محمد الحسني (يرحمه الله تعالى) فوافق على ذلك وأشرف على هذا العمل الصحافي السليم ، كما قد عززه سعادة العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي (خلف سماحة الإمام الندوي اليوم) في جميع مراحل هذا العمل الصحافي الجليل يوم ذاك ، كما أن كاتب هذه السطور كان مع مؤسس هذه المجلة من أول يومها .

وقد صدر العدد الأول لمجلة البعث الإسلامي في شهر صفر الخير لعام ١٣٧٤هـ الموافق شهر أكتوبر لعام ١٩٥٥م ، ونالت من القبول والإعجاب لدى الأوساط العلمية والأدبية ما لم يكن في الحسبان .

واليوم تدخل " البعث الإسلامي " مرحلة جديدة بعد ما أتمت من عمرها ستين عاماً كاملاً، والحمد لله على ذلك ، فهذا هو العدد الأول للمجلد الحادي والستين ، نتمنى أن يصلك وأنت في أحسن حال وأهنأ بال، وندعو الله تعالى أن تستمر في أداء رسالتها بإخلاص وثقة بالتوفيق والتأييد الكاملين من الله عز وجل .

والله ولي التوفيق .

سعيد الأعظمي الندوي

١٤٣٦/٦/١٥هـ ٢٠١٥/٤/٥م

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

ما أشبه الليلة بالبارحة!
بين الحوثية والأبرهية

ليست الإجراءات العسكرية التي يقوم بها التحالف العربي إلا للدفاع عن شرعية الحكم في دولة اليمن والحفاظ على الأمن والاستقرار إلى جميع ربوعها ، فإذا كانت المملكة العربية السعودية في مقدمة هذا التحالف العسكري بواسطة الدفاع عن الشرعية الدستورية في دولة اليمن، ومطالبة انسحاب الحوثيين من صنعاء ، فلا ريب أن المملكة والحرمين الشريفين كان مستهدفاً أساسياً أمام هؤلاء الهدامين ، والقصة في الواقع تبتدئ منذ أن أصدر برلمان ولاية كنساس في الولايات المتحدة الأمريكية قبل العام المنصرم قراراً ضد الشريعة الإسلامية واعتبارها قانوناً أجنبياً تمس سيادة القانون في أمريكا ، ولتنفيذ المخططات المبيتة ضد الإسلام ومركز الحرمين الشريفين وإخراج هيبتهما من القلوب ، جرت محاولات وإعدادات سرية بين الهدامين المجرمين فكان أيسر طريق أن يحدبوا على الجماعات المشبوهة في المجتمعات المسلمة ممن يضمرون العداء ضد العالم الإسلامي ويتمنون السيطرة الكاملة على بلاد الحرمين الشريفين لتحقيق أمنياتهم الفاشلة نحو الغارة عليها بالقنابل الذرية .

وقد كان لي حظ في الإشارة إلى بعض الفعاليات التي يعتزم عليها أهل الغرب وأنصارهم في مجال تدمير مشاعر الإسلام ، فقد جاء في افتتاحية العدد الأول للمجلد الستين من المجلة :

" إن عداوة الإسلام قد رسخت في قلوب أهل الغرب على جميع المستويات والمحتويات ، وحملتهم على أن يعلنوا إعلاناً صارخاً أن هدفهم الآن أن يستخدموا جميع الآليات والوسائل السريعة التأثير في الغارة على الحرمين الشريفين بالقنابل الذرية ونسفهما وتدميرهما بالكلية – لا قدر الله تعالى – حتى لا يبقى عين ولا أثر لهذين المشهدين العظيمين اللذين

لهما قدسية كبيرة وجليلة (لدى الأمة المسلمة) إذ كانا ولا يزالان ينبوعين ثرّين لتجديد الإيمان في القلوب ، ومصدرين سماويين لتزويد الأمة الإسلامية بشاشة الإيمان ونشاط العمل الصالح ، ولشحن بطاريتها بطاقة الإيمان والعقيدة والحب والأمن والسلام " .

ومن خلال هذه الظاهرة الخطيرة نستطيع أن نرى بعين الاعتبار إلى الإجراءات العسكرية التي يقوم بها التحالف العربي للدفاع عن الشرعية في اليمن وإعادة الأمن والاستقرار في هذا البلد الإسلامي الذي تريد جماعة الحوثيين نشر الفساد فيه على أوسع نطاق ، حتى تجد من خلال ذلك طريقاً إلى بلاد الحرمين الشريفين وتتمكن من تنفيذ خطة مبيتة تتجدد على مر الأيام والليالي ، وهي تدمير الحرمين وقطع علاقة الحب والعقيدة والإيمان عن شخصية المسلم ، نحو الحنين إلى بلاد الحرمين الشريفين ، وهما لا شك مركزا الشحن الإيماني العقدي للدين الحنيف ، وبهما ترتبط الأمة الإسلامية باستمرارية منقطعة النظير ، وقد شهد التاريخ اليمني قبل الإسلام واقع أبرهة الأشرم حينما غزا هذا البلد المقدس مع جيش عظيم من الأفيال والجنود ، فلقي ما لا ينساه التاريخ البشري أبداً وفي أي فترة من التاريخ ، من عار وشنار وفرار ودمار ، وقد خلد ذلك كتاب الله تعالى لكيلا يكذبه الكذابون والمزورون من المؤرخين والمتنبئين ، ممن يتناسون في غمار العداوة كثيراً من الفضائح والنكسات التي لقوها بأمر من الله العزيز الحكيم .

ولعل هناك طائفة من أناس تضمر العداوة لدين الله تعالى الأخير ، ولرسوله وللمؤمنين به وأتباعه ، وهي تسعى جاهدة أن تدمر مراكز العلم والإيمان ومنابع العقيدة والعبودية التي تستنير منها القلوب نور الإسلام وإشراقة الإيمان واليقين ، وتستقي منها الأمة المسلمة روح الاستقامة والسعادة وطاقة الحب والاستسلام لله تعالى ، وتستلهم منها تعاليم الكتاب والسنة وأساليب القوة وأسباب الفتوة والقيادة العالمية للنوع البشري ، فتكون منارة النور والهداية للعالم أجمع ، وتعلم الإنسان طريق العز والكرامة والعيش بالهدوء والطمأنينة ، وذلك بأداء أمانة العلم والدين إلى العالم بكامله .

ولعل الحوثيين من أبناء أبرهة الأشرم الحبشي اليمني ، يريدون أن

ينجزوا ما قد تقاصر عنه جدهم الأشرم وجنوده وأفياله قبل طلوع شمس النور والهداية وقبل ولادة ذلك النبي الأخير خاتم الأنبياء والرسل بخمسين يوماً ، الذي أرسله الله تعالى بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فقد أذن الله تعالى أن الجنود تنهزم وأن الأشرم سيلقى ما لم يكن يخطر ببال وأن كبرياءه المزورة وصلفه الكاذب يجرانه إلى أن يدسّه الله القدير العليم في التراب ، ويصبح هو وجنوده وأفياله كلها كعصف مأكول ، وعبرة للطواغيت والمجرمين ، والأباطرة الظالمين على مدى التاريخ البشري في العالم ، (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) .

هذه عاقبة كل من سعى وبغى وكل من جال وصال ، وقام بإعدادات هائلة للنيل من بيت الله وحرميه الشريفين ، والبلاد التي شرفها الله تعالى بالحرمين و وفق رجالها إلى صيانتهما وسدانة بيته العتيق ، وقد ذهبت الكعبة المزورة التي كان قد بناها الأشرم ليصرف الناس من بيت الله تعالى إلى حج ما بناه وشيده كبراً ورياءً ، ذهبت أدراج الرياح ، ورفضتها أرض اليمن والعرب ، ونسيها التاريخ والعالم ، والناس أجمعون، يقول ابن كثير في تفسير سورة الفيل :

" هذه من النعم التي امتن الله تعالى بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله تعالى وأرغم أنوفهم وخيب سعيهم وأضل عملهم وردهم بشر خيبة ، وكانوا قوماً نصارى ، وكان دينهم أقرب حال مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان ، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ، و (كأن) لسان حال القدر يقول : لم ننصركم – يا معشر قريش – على الحبشة لخبرتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، خاتم الأنبياء " . (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، سورة الفيل)

سارت الحوثية على آثار جدها ، بعد مران طويل على تنفيذ

الخطة، وتدريب عسكري من قبل أسيادها الغربيين للاقتحام في أرض الحرمين الشريفين واستحقاق جوائزهم على ذلك ، ولم يكن ذلك ارتجالاً وموقتاً ، إنما كان إيماناً بعقيدة واقتناعاً بضلالتهم التي تلوثت بها حياتهم ، وتحقيقاً لذلك النفاق العملي الذي يتميزون به في جميع أحوالهم، وكان ذلك امتثالاً لأوامر تلقوها من زعمائهم وأساتذتهم ، فقاموا بغزو عسكري اعتماداً على الأسلحة الثقيلة والمدافع السريعة التي كانوا قد نالوها من أصدقائهم الشرقيين والغربيين ، ولكن هيهات .....

وبالرغم من أن القوات الحوثية تلاقي الهزائم وتلتجئ بالفرار من الميدان ، إلا أنها لا تكاد تنصرف عن امتثال أوامر " الأصدقاء " كأنها ملحة على تنفيذ خطتها المبيتة التي تماثل خطة الأشرم الشقي ، وإن كانت نوعية تنفيذها مختلفة عن خطة الإعلان العام الذي صدر منه بغاية من الوقاحة والسفاهة والجنون ، بل الواقع أنه كان تحدياً منه تحدى به الله سبحانه وتعالى ، وقدرته .

فكان جزاء هذا الشقي أنه لما فر راجعاً إلى اليمن تساقط عضواً عضواً حتى مات ببلاد خثعم ، وذكر ابن كثير قصته وجنوده فقال : "يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه " .

والأنباء تفيدنا بأن الحوثية في طريقها إلى الانتحار والانهزامية – بمشيئة الله تعالى – وسوف لا تنجح في تنفيذ خطتها الجنونية ، وعزائمها الفاشلة ، وستطوق أصدقاءها وحلفاءها أطواق الهزائم التي تكون عاراً وشناراً لهم ، وعبراً ودروساً لكل من طغى وبغى ، من غير حق .

(فَأَمَّا مَن طَغَى . وآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

سعيد الأعظمي الندوي

١٤٣٦/٦/١٥هـ ٢٠١٥/٤/٥ م

التوجيه الإسلامي

العاقبة للعرب والمسلمين

بقلم : سماحة العلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله

لا شك أن اليهودية العالمية قد نجحت نجاحاً فوق الحساب في تحقيق مراميها وأهدافها الكثيرة – التي ظلت آلافاً من السنين تحلم بها ، وفي تطبيق مخططاتها الكثيرة ، التي كانت تعتبر ضرباً من غرائب الهوس ، وطرائف الجنون – في سهولة ويسر ، لم يكن يتخيلهما أحد لا العرب ولا اليهود أنفسهم .

فقامت دولة (إسرائيل) في قلب المنطقة العربية الإسلامية المقدسة ، وبقيت جاثمة على صدر العرب والمسلمين ، واستطاعت بنفوذ اليهود العالمي أن لا تحتفظ بكيانها فحسب ، بل لم يزدها الزمان إلا قوة واستحكاماً ، ثم استطاعت أن تنتصر على أعظم معسكر عربي وأضخمه عدة وعتاداً ، وأن تحطم قوته الجوية .

وأكثر خطراً من ذلك ، أنها أضعفت قوة إرادة الشعب وروح مقاومته في بضع ساعات في الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ م ، واستولت على القدس ، وعلى الضفة الغربية ، وعلى شبه جزيرة سيناء ، وأصبحت قناة السويس ، وكثير من مدن مصر الساحلية مهددة معرضة للخطر الإسرائيلي ، وتوغلت في الأراضي السورية ، واستولت على عدد من المواطن الاستراتيجية المهمة ، واستطاعت أن تضرب عدة مطارات عربية في جراءة ووقاحة .

وهي الآن تحلم بالاستيلاء على هذه المنطقة العربية كلها ، وتتهدد الأماكن المقدسة في قلب الجزيرة ، ويتحدث بعض زعمائها باسترداد ما فقده آباؤهم من حصون ومستعمرات يهودية في الجزيرة العربية ، وجلوا عنها في المد الإسلامي الأول .

بل يمني اليهود أنفسهم بأن يصبحوا يوماً من الأيام السطوة العالمية

التي تملي أوامرها ، وتفرض إرادتها على الرؤساء والوزراء ، والقادة والزعماء في العالم كله ، وتحقق الحلم البعيد الذي رآه الربِّيون في التلمود ، وحكماء صهيون في بروتوكولاتهم .

فهل يدوم هذا الوضع ؟ وهل تحقق الصهيونية ما بقي من أحلامها ومخططاتها ؟ وهل يُترك العرب والمسلمون تحت رحمة هؤلاء الطامحين ؟ وهل يفسح لهم المجال ، ويرخى لهم الحبل ، حتى يستولوا على العالم كله؟ ويحققوا أغراضهم وما يدينون به من فلسفات ، وأفكار ونظريات؟ وهل يمنحون القيادة للنوع البشري ، وتتاح لهم الفرصة في توجيهه كما أتيحت لرسالات وفلسفات ، أو قوىً وطاقات ، أو مدنيات وحضارات في الزمن السابق ؟

إننا لا نستطيع أن نجيب عن ذلك جواباً حاسماً ، حتى نقف وقفة قصيرة أمام هذا الكون الفسيح البديع ، وما عرفناه عن خالقه ومبدعه ، وأسمائه وصفاته ، وأفعاله وإرادته ، وسننه وقوانينه ، وأمام التاريخ البشري ، وما وصل إلينا من تجاربه وحوادثه .

ولا نستطيع أن نحكم في ذلك بشيئ حتى نحكم على السلالة البشرية ، ومدى صلاحيتها ، والطبيعة البشرية ، ونصيب الخير والشر فيها ، ونحكم على مستقبل الجيل البشري ، ومصير هذا العالم .

فإذا قررنا أن خالق هذا الكون الحكيم العليم ، لم يخلق هذا الكون وهذا الكوكب الذي نسكنه إلا للفساد والدمار ، والفوضى والانحلال ، والظلم والقسوة ، والوحشية والهمجية ، والمؤامرات والدسائس ، ولم يهتم به هذا الاهتمام – الذي يتجلى في جميع مجالاته – من إبداع وإتقان ، وحسن وجمال ، وترتيب وتنسيق ، ويتجلى في إرسال الرسل ، وإنزال الكتب حيناً بعد حين ، وإلهام المصلحين ونصر الصالحين الصادقين ، وإدالة الخير من الشر ، وتغليب الصلاح على الفساد جيلاً بعد جيل ، إلا ليسيطر عليه عنصر ينتمي إلى بعض الأنبياء في أقدم العصور ، وتجري في عروقه قطرات من دمهم ، لا ترى بأدق مكبرة بيولوجية ، ولا تحسب بأكبر مهارة رياضية ، ولتهيمن عليه وعلى جميع طاقاته ، وذخائره وثرواته ، سلالة بشرية واحدة ، هي (شعب الله

المختار) والأسرة الإلهية المقدسة[1] .

وإذا قررنا أن هذه السلالة البشرية الكريمة ، هي الخلية البشرية الوحيدة ، التي خصها الله بجميع الطاقات ، وبجميع المواهب ، وقد ارتكزت فيها كل صلاحية ، وكل عبقرية ، وكل إبداع .

أما الخلايا البشرية الأخرى ، التي يتكون منها النسل الإنساني الذي يملأ العالم ، فهي حثالة كحثالة الشعير ، وبراية كبراية الأقلام ، مجردة عن كل جدارة وصلاحية ، وقدرة على الإبداع والإنتاج ، وعن جميع المواهب والمنح .

فالعنصر اليهودي له وحده الحق في السيادة والحكم على النوع البشري ، أما سائر الناس ، فيجب أن يساقوا كما تساق قطعان البهائم الحقيرة ، وكل من عدا هؤلاء الأبناء المدللين ، والسعداء الموهوبين ، فقطع شطرنج يلعب بها الدهاة اليهود الأكرمون في قدرة ومهارة ، ويضربون بعضها ببعض ، ويغلبون بعضها على بعض ، ويهزمون بعضها أمام بعض ، وهي لا تملك من أمرها شيئاً[2] .

وإذا قررنا أن البشرية ، هي الطبيعة الشريرة ، التي تفضّل التدمير على البناء ، والإفساد على الإصلاح ، وهي متشائمة دائماً ، حاقدة ناقمة على العالم أجمع ، ساخطة على الماضي والحاضر ، ثائرة موتورة ، تحمل الأحقاد القديمة والجديدة ، وتنظر إلى كل قضية وحادثة بالمنظار الأسود ، ولا ترى إلا الجانب الضعيف فيما صنع الصانعون ، وبنى البنّاؤون ، وخلف المخلفون ، متذمرة تضيق ذرعاً بكل شيئ ، تحتقر غيرها ، وهي في الحقيقة مصابة بمركب النقص (InferiorityComplex) لا تعرف للسلالة البشرية كرامة ، ولا للإنسان شرفاً ، ولا تعرف غاية

[1] وهو ما يحكي القرآن من زعمهم وقولهم : (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) (المائدة : ١٨)، وأسفار العهد العتيق والتلمود مملوءة بهذه المزاعم والصفات والنعوت التي لا يتحملها هذا الفصل القصير .

[2] يسميهم اليهود الأميين ويعبرون عن ذلك بكلمة جوييم (Goyem) ، وبكلمة (Centles) ويراد بها غير اليهود ، ومعناها عندهم وثيون ، وكفرة ، راجع معجم (أكسفورد) الإنكليزي

أسمى من المادة وتحقيق الرغبات الخسيسة .

تقسو عند الانتصار ، وتجبن عند الهزيمة ، وتستخدم جميع الوسائل للوصول إلى الغاية ، ولا تتورع عن أخس الأعمال ، وأفحش الظلم، وأحط الأخلاق ، وأوقح نفاق .

وإذا قررنا أن العامل البناء الوحيد ، القوي المؤثر ، في بناء المدنيات ، وصنع التاريخ ، وإسعاد البشرية ، وسياسة الشعوب والأمم هو الدهاء الخبيث ، والمهارة الإجرامية ، واللباقة الهادمة المدمرة ، والإفساد بين الناس ، والقضاء على الضمائر ، وفك نظام الأسرة ، وإشاعة الرذيلة والانحلال ، وإحداث الأزمات بعد الأزمات ، وأن الوسيلة الأقوى التي سيطرت على مصاير الأمم ، وأعظم حوادث العالم ، وغيرت مجرى التاريخ ، هي المؤتمرات الخفية ، وأن أكبر قوة يعتمد عليها هي الغدر ، ونكران الجميل ، واللؤم والخسة ، وأن الخلق المحبب إلى الله ، الضامن للغلبة والانتصار ، والعائد على البشرية بالسعادة الهناء ، هو الكبرياء والأثرة [1] .

وإذا قررنا أن مصير الإنسانية حالك مظلم ، لا أمل في سعادة ولا في أمن وسلام ، ولا في إخاء ووئام ، وأنه لا يزال ينتقل من حرب إلى حرب، ومن نكبة إلى نكبة ، ومن شؤم إلى شؤم ، ومن ثورة إلى ثورة ، حتى ينتهي إلى جهنم التي سعّرتها الأغراض المتطاحنة ، والأحقاد المتواصلة .

وإذا قررنا أنه ليس هنالك قضية رسالة وهداية ، وقضية عقائد ومبادئ ، وقضية ضمائر وقلوب ، وقضية أخلاق وفضائل ، وقضية دين مختار ، وشريعة مصطفاة ، ومنهج مفضل للحياة ، إنما هي قضية سلالة نسب ، ودم وعرق ، وقضية ثارات وترات ، وأحقاد وضغائن ، واسترداد لمجد ضائع ، وأرض مسلوبة أو محتلة ، وإشباع لرغبة الطموح أو غريزة الاستيلاء وطبيعة الجشع .

---

[1] ولذلك يصفهم القرآن بـ (المغضوب عليهم) وجاء هذا الوصف في سور الفاتحة (٧)، التي تتكرر وتجب قراءتها في كل صلاة ، لا يتذوق هذه الكلمة البليغة ، ولا يعرف مدى انطباقها على اليهود ، إلا من عرف سيرتهم ، والدور الذي لعبوه في تاريخ الإنسانية .

إذا قررنا ذلك كله ، فلا شك أن اليهود هم المرشحون ، المهيّئون للسيادة والغلبة ، وأن هذا الوضع سيظل ويدوم ، وأنه لا يعوقهم عن توسعهم في الحدود والامتلاك والاحتلال وعن تحقيق مخططاتهم شيئ .

هذه هي الصورة الحقيقية لليهود التي رأيناها فيما عندنا من أسفار (العهد القديم) ، وفي صحف (التلمود) ، وفي (بروتوكولات حكماء صهيون) وفي ما وصل إلينا من خطب زعمائهم ، ومحاضر جلساتهم السرية ، وفيما تحقق من أعمالهم وإجراءاتهم ، منذ استولوا على القدس وعلى المدن الإسلامية العربية .

وهي صورة الحقد والاحتقار ، والنقمة والسخط على البشرية ، وتقديس العنصر اليهودي ، والدم الإسرائيلي إلى حد التأليه ، وتجريد السلالة البشرية الباقية في جميع أدوار التاريخ ، وفي جميع أنحاء العالم عن كل جدارة وصلاحية ، والتصميم على الاستيلاء على العالم كله ، لمصلحة اليهود وحدهم ، والبغضاء المتأصلة في النفوس ، والضراوة بالشر والفساد كطبيعة أصلية ، والعنف والعناد كأخلاق قومية ، وعادات موروثة ، وهي الصورة التي تقترن بتاريخهم اقتران المزاج بالإنسان ، وترافقهم مرافقة الظل .

فالمؤامرة قوام تاريخهم ، وعماد حياتهم ، والقطب الذي يدور حوله نشاطهم وذكاؤهم ، وهم الرأس المفكر ، والعقل المدبر ، والإصبع المحرك في كل ثورة ، وفي كل مؤامرة ، وفي كل مذهب هدام ، وفي كل فلسفة مدمرة ، وفي كل قلق يسود ، وفي كل أزمة تحدث ، اقتصادية كانت أو سياسية ، واجتماعية كانت أو خلقية ، ولا أبلغ ولا أدل من كلمة نابغتهم (الدكتور أوسكار ليفي) في وصفه شعبه : (نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ، ومفسديه ومحركي الفتن فيه وجلاديه) .

(للبحث صلة)

رجب شهر الله الحرام

الشيخ الطاهر بدوي الجزائري

إن شهر رجب شهر من الشهور الأربعة الحرم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم قال عز وجل: " إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ " .(التوبة/ ٣٦) . وتبين السنة المطهرة هذه الأشهر الحرم: فعن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال:" ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان

فهذا مما كانت العرب في الجاهلية تحرمه ، وهو الذي كان عليه جمهورهم . وأما قوله صلى الله عليه وسلم:" ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان" فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان . . فبين صلى الله عليه وسلم أنه رجب مضر لا رجب ربيعة . وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ، ثلاثة سرد و واحد فرد لأجل أداء مناسك الحج والعمرة . فحرم أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال ، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك ، وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً . ولهذا جعلهن الله حراماً ونهى عن الظلم فيهن " فلا تظلموا فيهن أنفسكم " لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى " وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ " (الحج /٢٥) . . .

نعم ، حرم الله سبحانه وتعالى الظلم على نفسه وجعله محرماً بين عباده كما جاء في الحديث القدسي عن رب العزة جل جلاله في سائر الشهور ولكن اختص من ذلك أربعة أشهر فجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم .

لا تظلموا أنفسكم في هذه الأشهر الحرم التي يتصل تحريمها بناموس كوني تقوم عليه السماوات والأرض ، ذلك الناموس هو أن الله هو المشرع للناس كما أنه هو المشرع للكون . . لا تظلموا أنفسكم بإحلال حرمتها التي أرادها الله لتكون فترة أمان وواحة سلام ، فتخالفوا عن إرادة الله . وفي هذه المخالفة ظلم للأنفس بتعريضها لعذاب الله في الآخرة ،وتعريضها للخوف والقلق في الأرض ، حين تستحيل كلها جحيما حربية ، لا هدنة فيها ولا سلام .

" وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً "(التوبة/ ٣٦) ذلك في غير الأشهر الحرم ما لم يبدأ المشركون بالقتال فيتعين رد الاعتداء في تلك الأشهر لأن الكف عن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة المنوطة بها حفظ الحرمات ووقف القوة الشريرة المعتدية،ويشيع الفساد في الأرض والفوضى في النواميس . فرد الاعتداء في هذه الحالة وسيلة لحفظ الأشهر الحرم ، فلا يعتدى عليها و لا تهان .

عزيزي القارئ ! التفت عن يمينك وشمالك تجد الصهاينة يعدون كل يوم من أيام السنة لارتكاب مجازر رهيبة في صفوف إخواننا الفلسطينيين والمسلمون لا يحركون ساكنا ، ينتظرون " المؤتمر الدولي للسلام " . . وعلى حساب من يكون هذا السلام ؟ لا يحركون ساكنا وإخوانهم يتقاتلون هنا وهناك ألم يأمرنا الإسلام الحنيف بالإصلاح بين الطائفتين المتنازعتين بالعدل والمساواة قال تعالى : " وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " (الحجرات / ٩) ، لا يحركون ساكنا وإخوانهم يموتون جوعاً هنا وهناك . . يتعاملون مع أعدائهم معاملة الولي الحميم ، ينظرون إلى مقدساتهم قد انتهكت حرمتها وهم يبكون، ويتساءلون كيف دخل العدو قصرهم وقد فتحوا له كل الحصون . . .

سبحان الله فهذه هي البلادة بعينها . ألم يأن للمسلمين أن يقاتلوا المشركين كافة كما أمرهم الله تعالى بقوله:" وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة "(التوبة/ ٣٦) يعني قاتلوهم جميعاً بلا استثناء أحد منهم ولا جماعة ، فهم يقاتلونكم جميعا لا يستثنون منكم أحداً ، ولا يبقون منكم على جماعة .

والمعركة في حقيقتها إنما هي معركة بين الشرك والتوحيد ، وبين الكفر والإيمان وبين الهدى والضلال ، فليست معركة اقتصادية أو معركة قومية أو معركة وطنية ، بل هي معركة العقيدة ، وهذه لا تجدي فيها أصناف الحلول ولا تعالجها الاتفاقات والمناورات ولا علاج لها إلا بالجهاد والكفاح ، ومن كان مع الله كان هو الغالب على كل حال والمنصور بلا جدال .

فأين الغيرة الإسلامية ؟ وهل بقي منها شيء في نفوسنا وقد أشربنا حب المادة والملذات ؟ فيغضب أحدنا إذا انتهكت حرمة منزله ولا يغضب لغضب الله . فأين الإيمان ؟ وما الإيمان إلا الحب في الله والبغض في الله .. وما الإيمان إلا بالجهاد المقدس . . . كيف كان رد فعل الرسول صلى الله عليه وسلم على اليهود عامة وعلى بني النضير خاصة في وقعة وقعت بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب ؟ أكان رده مظاهرات صامتة ؟ أم إعراضاً عن المشركين ؟ كلا !! وإليك نبذة وجيزة عنها:

كانت وقعة بني النضير في أوائل السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب . . ومما يذكر عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب مع عشرة من كبار الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم إلى محلة بني النضير ، يطلب منهم المشاركة في أداء دية قتيلين بحكم ما كان بينه وبينهم من عهد في أول مقدمه على المدينة . فاستقبله يهود بني النضير بالبشر والترحاب ووعدوا بأداء ما عليهم ، بينما كانوا يدبرون أمرا لاغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه . وكان صلى الله عليه وسلم جالسا إلى جدار من بيوتهم . فقال بعضهم لبعض: " إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه . فمن رجل منكم يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال: " أنا لذلك " . فصعد ليلقي عليه صخرة

كما قال . فألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبيت اليهود من غدر . فقام كأنما ليقضي أمرا . فلما غاب استبطأه من معه ، فخرجوا من المحلة يسألون عنه ، فعلموا أنه دخل المدينة . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحرب بني النضير لظهور الخيانة منهم ونقض عهد الأمان الذي بينه وبينهم . . .

فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر محلة بني النضير ، وأمهلهم ثلاثة أيام وقيل عشرة ليفارقوا جواره ويجلوا عن المحلة على أن يأخذوا أموالهم ، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم . ولكن المنافقين في المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق ، أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة وقالوا لهم:" أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم " . فتحصن اليهود في الحصون ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع نخيلهم والتحريق فيها .

ولما بلغ الحصار ستا وعشرين ليلة يئس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم ، وقذف الله في قلوبهم الرعب فصاروا "يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المومنين " . فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه فيحمله على ظهر بعيره أو يخرجه حتى لا يقع في أيدي المسلمين .

وفي هذا يقول الله تعالى في سورة الحشر (الآيات / ٢ – ٣ – ٤ – ٥) : "هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللّهِ فَأَتَاهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُواْ يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ . وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَآقِّ اللّهَ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ " . وكان منهم من سار إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام . وكانت أموال بني النضير فيئا خالصا لله والرسول ، لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المهاجرين خاصة دون

الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل بن حنيف وأبو دجانة سماك بن خرشة وذلك أن المهاجرين لم يكن لهم مال بعد الذي تركوه في مكة وتجردوا منه كله لعقيدتهم ، وكان الأنصار قد أنزلوهم دورهم وشاركوهم مالهم في أريحية عالية وأخوة فائقة وإيثار عجيب . فلما واتت هذه الفرصة سارع رسول الله صلى الله عليه وسلم لإقامة الأوضاع الطبيعية في المجتمع الإسلامي كي يكون للفقراء مال خاص وكي لا يكون المال متداولا في الأغنياء وحدهم .

وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم والراجح أنهم من المنافقين فأنزل الله تعالى ليحسم الموقف ولينهي الخلاف : " وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . " (الحشر/ ٦) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار : " إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة " . فقالت الأنصار : " بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها " .

وفي هذا نزل قوله تعالى: " لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ " . (الحشر / ٨ – ٩) .

وهل كان رد المسلمين على اعتداء الصهاينة ومن هو على شاكلتهم على هذا النحو وعلى هذه المنهجية النبوية ؟؟ وما اعتدوا علينا إلا بعد أن اعتدينا بأنفسنا على عقيدتنا ومقدساتنا فاضمحلت قوانا وتلاشت صفوفنا وأصبحنا كثرة أذلة لا قلة قوية ، غثاء كغثاء السيل و لا حول و لا قوة إلا بالله .

شرح قصيدة
الكواكب الدرية في مدح خير البرية
المعروفة "بالبردة" للإمام الأكبر
الشيخ إبراهيم الباجوري شيخ الأزهر
(الحلقة السابعة عشرة)

بقلم: الأستاذ الدكتور/غريب جمعة
جدة_ المملكة العربية السعودية

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم
ماذا رأى منهم في كل مصطدم (١٢٨)

(١٢٨) قوله " هم الجبال " إلخ هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، لأنها جواب عما يقال من الذين صارت بهم الملة إلى هذه الحالة ، والكلام على التشبيه ، أو هم كالجبال في الصبر والصلابة ، وهذا يسميه البلاغيون تشبيهاً بليغاً ، لا استعارة ، وقوله " فسل عنهم " أي إن ارتبت فسل عنهم من صادمهم من أعدائهم ، ولعل مراده فسل عنهم مؤرخ أخبار مصادمهم على تقدير حياته ، وإلا فكيف يتصور سؤاله الآن ، وقد مات من مدة مئين من السنين حتى عاد رفاتاً ، والمصادمة اصطكاك الصفين ، وقوله " ماذا رأى منهم " أي من الشدة التي لا توصف لعظمها ، و " ما " اسم استفهام مبتدأ " وذا " اسم موصول ، خبر أي ، أي شيئ الذي رأى ، ويصح أن تكون " ماذا " بتمامها اسم استفهام ، وعلى هذا فهو مفرد بخلافه على الأول فهو جملة ، وقوله " في كل مصطدم " بفتح الدال أي في كل مكان الاصطدام الذي هو اصطكاك الصفين كما مرَّ ، والمراد بالمصطدم الأماكن التي التقوا فيها مع أعدائهم ، وبين مصادمهم ومصطدم تجنيس الاشتقاق وهو رد الصدور على الأعجاز .

وسل حنيناً وسل بدراً وسل أحداً
فصول حتف لهم أدهى من الوخم (١٢٩)

(١٢٩) قوله " وسل حنيناً " إلخ أي وسل زمن غزوة حنين وسل زمن غزوة بدر ، وسل زمن غزوة أحد ، ويحتمل أن يكون مراده : وسل أهل حنين وسل أهل بدر ، وسل أهل أحد أو سل مؤرخ وقعة حنين وسل مؤرخ

وقعة بدر وسل مؤرخ وقعة أحد ، والتفسير الأول أولى ، لأن قوله " فصول حتف " بدل من حنين وما عطف عليه بدل مجمل من مفصل ، وبعضهم جعله مبتدأ خبره محذوف ، أي هي فصول إلخ ، ومعنى قوله " فصول حتف " أزمنة موت للكفار ، وقوله " أدهى من الوخم ، أي أشد داهية عليهم لما يصيبهم فيها من الوخم الذي هو الوباء ، فإن ما يموت منهم في زمن الوباء، مع تطاوله لا يبلغ كثرة من يموت منهم في زمن مقاتلة المؤمنين مع قصره ، كالساعة الواحدة ، وكانت غزوة حنين بعد فتح مكة سنة ثمان وهو اسم لواد بين مكة والطائف ، وفيه التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون مع المشركين ، فانهزم الكفار وقتل منهم كثير ، وسبيت أموالهم ونساؤهم ، وكانت غزوة بدر من غير قصد من المسلمين إليها في يوم الجمعة سنة اثنتين من الهجرة ، و " بدر " اسم ماء على طريق مكة بينه وبين المدينة ثمانية وعشرون فرسخاً ، وعنده كانت هذه الغزوة ، وقتل فيها من صناديد قريش سبعون ، وكان عددهم نحو ألف والمسلمون نحو ثلثمائة وروي أنه نزل جبريل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة في صورة الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعلى رؤوسهم عمائم بيض قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم ، ولم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر ، وإنما يكونون عدداً ومدداً ، وكانت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث وهو اسم لجبل بالمدينة كانت الوقعة فيه ، واستشهد فيها من المسلمين سبعون، منهم حمزة ، وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً ، وكان المسلمون سبعمائة ، والمشركون ثلاثة آلاف ، والحرب سجال واحدة لنا و واحدة علينا .

المصدري البيض حمراً بعد ما وردت
من العدا كل مسودٍّ من اللمم (١٣٠)

(١٣٠) قوله " المصدري البيض " إلخ أي أمدح المصدري البيض إلخ فهو مفعول لفعل محذوف ، وأصله : المصدرين ، لكن حذفت نونه للإضافة إذ جعلت المصدري مضافاً للبيض أو للتخفيف إن جعلناه غير مضاف ، والمصدرين جمع مصدر بضم الميم ، من أصدر عن الماء : رجع ، ويقال : أصدره غيره أي أرجعه ، والمراد من البيض السيوف المصقولة ، فشبه السيوف المذكورة بإبل بيض ، أوردت ينبوعا أسود يجري بماء

أحمر ، ثم أصدرت عنه حمراء من تلبسها بالماء الذي وردته ، تشبيهاً مضمراً في النفس ، وطوي لفظ المشبه به ، ورمز إليه بشيئ من لوازمه وهو الإصدار ، ففيه استعارة بالكناية ، وتخييل ، وقوله " حمرا " أي من الدماء التي خالطتها وهو حال من البيض ، وقوله " بعد ما وردت " أي بعد ورودها ، فما مصدرية ، وقوله " من العدا " حال من قوله " كل مسود " الواقع مفعولاً لقوله وردت ، وقوله " من اللمم " أي الشعر المجاور شحمة الأذن ، فاللمم بكسر اللام جمع لمة وهي الشعر المذكور ، و " من " زائدة، لأن المعنى على الإضافة ، والتقدير كل مسود من اللمم فحاصل المعنى : أمدح الصحابة الذي أصدروا أي أرجعوا السيوف البيض حال كونها حمراء من الدماء بعد ورودها كل شخص مسود اللمم حال كونه من العدا ، وفي ذلك دليل على شجاعة الصحابة رضي الله تعالى عنهم حيث لا يرضون إلا بقتل سود اللمم من العدا ، وهم الشبان في الغالب .

والكاتبين بسمر الخط ما تركت

أقلامهم حرف جسم غير منعجم (١٣١)

(١٣١) قوله " والكاتبين بسمر الخط " إلخ عطف على قوله المصدري البيض ، وأراد من الكاتبين الطاعنين ، فيكون قد شبه الطعن بالكتابة بجامع التأثير في كل ، واستعار الكتابة للطعن ، واشتق من الكتابة بمعنى الطعن ، الكاتبين بمعنى الطاعنين ، على طريق الاستعارة التبعية التصريحية ، والمراد بسمر الخط : الرماح الخطية ، فالسمر جمع أسمر وهو الرمح ، والخط شجرة تتخذ منه تلك الرماح ، وقيل: موضع باليمامة تجلب إليه تلك الرماح من الهند ، وقوله " ما تركت أقلامهم حرف جسم غير منعجم " أي لم تترك أسنة رماحهم طرف جسم من أجسام الكفار غير مزال عجمته ، بل أزالت عجمته ، أي خفاءه بالطعن ، بأن طعنته ليتميز الكفار من المؤمنين ، فإن الأمر مختلط في الحروب ، فيتميز الكافر بطعنه ، والمؤمن بسلامته ، كما يتميز الحرف المعجم بنقطه ، والمهمل بخلوه عن النقط ، فالمراد بأقلامهم : أسنة رماحهم ، فيكون قد شبه أسنة رماحهم بالأقلام ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية ، والحرف بمعنى الطرف ، ومن قوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حرف) (الحج :

١١) أي على طرف وجانب من الدين ، وفي هذا البيت لطائف : منها تشبيه الصحابة بالكتبة ، و أسنة رماحهم بالأقلام ، وذلك دليل على غاية إحكامهم للطعن بها ، حتى إنها في أيديهم كالأقلام في أيدي الكتبة ، وليس عليهم كبير مشقة في التصرف بها ، ومنها الإشارة إلى أنهم لا يطعنون طعنة إلا في محلها ، كما لا تنقط الكتبة نقطة إلا في محلها ، ومنها الإشارة إلى أنهم أعجموا حروف أجسام الكفار ، ليتميزوا من المسلمين ويوجد في بعض النسخ بيت وهو :

إن قام في جامع الهيجا خاطبهم تصاممت عنه أذنا صمة الصم

أي إن قام في مجتمع الحرب خاطب الصحابة تغافلت عنه أذنا صمة الصم أي : أشدهم شجاعة ، قال العلامة ابن مرزوق : وهذا البيت لم يثبت في روايتي ، وإنما هو في بعض النسخ ، والظاهر أنه ليس من كلام الناظم ، ولذلك وقع الاضطراب في تفسيره ، وهذا شأن كثير مما أدخل فيه ، وفي ذلك دلالة على خلوص نيته وصدق محبته رحمه الله تعالى ونفعنا ببركته ، آمين .

شاكيِّ السلاح لهم سيما تميِّزهم
والورد يمتاز بالسيما عن السلم (١٣٢)

(١٣٢) قوله " شاكي السلاح " إلخ أي حاديه كما عليه الجوهري وبعضهم فسره بتأمِّيه أي جامعين لأنواعه ، والمناسب لأخذه من الشوكة التي هي الحدة الأولى ، وتركيب شاكي السلاح كتركيب المصدري البيض ، فأصله شاكين السلاح فحذفت منه النون للإضافة أو للتخفيف، وأصل شاكي : شاوك فدخله القلب المكاني فصار شاكو ، ثم دخله القلب الذاتي فصار شاكي ، وقوله " لهم سيما تميزهم " أي لهم علامة تميزهم عن غيرهم ، قال تعالى (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ ٱلسجود) (الفتح : ٢٩) ، قال بعضهم : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر ، وقوله " والورد يمتاز بالسيما عن السلم " أي والورد يتميز من السلم بالعلامة من طيب الرائحة وحسن الخلق وبهاء المنظر ، فإن السلم ضد ذلك ، فالورد والسلم وإن اشتركا في أن كلا شجر مورق ذو شوك إلا أن بينهما فرقا

ظاهرا لكل ذي بصر ، وكذلك الصحابة وغيرهم ، فإنهما وإن اشتركا في أن كلا ذو سلاح إلا أن بينهما فرقا ظاهرا لكل ذي بصيرة ، فالصحابة يمتازون عن غيرهم بشرف المنزلة وطيب الرائحة وبهاء المنظر وحسن الخلق ، فإن غيرهم بضد ذلك ، فالمقصود من قوله " والورد " توضيح الفرق .

تهدي إليك رياح النصر نشرهم
فتحسب الزهر في الأكمام كل كمي (١٣٣)

(١٣٣) قوله " تهدي إليك " أي ترسل إليك الرياح التي حصل بها النصر خبرهم السار على وجه الهدية ، فتهدي بمعنى ترسل ، وهو بضم التاء من أهدى ، والمراد رياح النصر ، الرياح التي حصل بها النصر فالإضافة لأدنى ملابسة ، ويحتمل أن المراد بها بركات النصر وثمراته ، وقد يراد بالرياح الدولات كما في قول الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها فعقبى كل عاصفة سكون

والمراد بالنشر الخبر السار وإن كان في الأصل الرائحة الطيبة ، وقوله " فتحسب الزهر في الأكمام كل كمي " كان حق الكلام أن يقول : فتحسب كل كمي الزهر في الأكمام ، لكن المصنف قد جعله من التشبيه المقلوب على حد قوله :

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

والزهر نور (بفتح النون وسكون الواو) كما مر ، والأكمام جمع كم : وهو غلاف النور ، والكمي الشجاع في سلاحه ، منه : كمى جسده بالسلاح إذا ستره به ، وأصله كمي بتشديد الياء حذفت منه الياء الساكنة وسكنت المتحركة للوقف ، وحاصل المعنى : أنه لما فتحت الأزهار في رياض ملة الإسلام برياح نصرهم ، كان كلما تهب تلك الرياح من هذه الأزهار وتنشر إلى الشام روائح نشرهم يظن كل بطل في الدروع الغامرة زهراً في الأكمام الفاخرة ، وإنما قيد بكونه في الأكمام لأنه في أكمامه أحسن منظراً وأطيب رائحة منه في خارج الأكمام .

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا
من شدة الحزم لا من شدة الحُزُم (١٣٤)

(١٣٤) قوله " كأنهم في ظهور الخيل " إلخ ، أي كأن الصحابة

حال كونهم على ظهور الخيل نبت ربا في الاستقرار والثبوت (الربا بضم الراء المشددة جمع ربوة : ما ارتفع من الأرض) حتى إنهم لو تحركوا عليها لم ينقلعوا من ظهور الخيل ، وإنما يتحركون للطعن والالتقاء مع ثبوت أصلهم ، كما يتحرك نبت الربا إذا حركته الرياح ، فالضمير للصحابة ، و " في ظهور الخيل حال " و " في " بمعنى " على " كما في قوله تعالى حكاية عن فرعون (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) (طه : ٧١) ، والربا يكون نباته أثبت من غيره لطول عروقه حتى يصل إلى الماء ، ويكون أحسن من غيره لأنه لا يستقر عليه الماء فيأخذ حظه من الرياح والشمس ، فتجده أخضر يعجب حسنه الناظرين ، وأما غيره فقد يستقر عليه الماء فيقتله ، أو يضعفه فيصفر لونه ، وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم : " كالحبة في حميل السيل " (وحميل السيل : ما حمله السيل من الغثاء) ، وإنما لم يشبههم بالشجر لأن الكفار تشبهه في عدم التحرك فإنهم لا يتحركون للطعن والالتقاء ، وأما النبت فالرياح تميله يميناً وشمالاً ، وقوله " من شدة الحزم " بكسر الشين المعجمة وفتح الحاء المهملة وسكون الزاى أي وذلك أعني استقرارهم وثبوتهم في ظهور الخيل من قوة جودة رأيهم وتدبيرهم ، وقوله " لا من شدة الحزم " بفتح الشين المعجمة وضم الحاء والزاي : أي لا من ربط الحزم التي يربط بها السرج أو غيره على ظهر الدابة ، وظاهر أن من في الموضعين بمعنى لام التعليل .

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا
فما تفرق بين البَهم والبُهَم (١٣٥)

(١٣٥) قوله " طارت قلوب العدا " إلخ أي اضطربت قلوب العدا إلخ فشبه الاضطراب بالطيران ، واستعار اسم المشبه به للمشبه ، واشتق من الطيران بعد استعارته للاضطراب " طارت " بمعنى اضطربت على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، وقوله " من بأسهم " أي من شدتهم وقوتهم في الحرب ، و " من " في ذلك بمعنى لام التعليل ، وقوله " فرقا " بفتحات أي فزعا وهو مفعول لأجله أي لأجل الفرق والفزع الذي حل بهم ، وقوله " فما تفرق بين البهم والبهم " أي بسبب ذلك حصل لهم دهش حتى صارت قلوبهم لا تفرق بين البهم بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء جمع بهمة وهي السخلة ، فالبهم هي السخال وهي أولاد الضأن وبين البهم بضم الباء

الموحدة وفتح الهاء جمع بهمة بضم الباء وسكون الهاء وهو الشجاع ، فالبهم هم الشجعان ، ولا يخفى أن " تفرق " في كلامه بضم التاء وتشديد الراء من فرّق بالتشديد لا بالتخفيف فتصير فرق .

ومن تكن برسول الله نصرته
إن تلقه الأسد في آجامها تجم (١٣٦)

(١٣٦) قوله " ومن تكن برسول الله " إلخ لما ذكر أنه حصل للعدو الفزع الشديد من بأس الصحابة رضي الله عنهم ، أشار إلى أن ذلك إنما هو بسر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : " ومن تكن برسول الله " إلخ أي ومن تكن نصرته برسول الله صلى الله عليه وسلم كالصحابة ومن حذا حذوهم إلخ ، ولا تكون النصرة برسول الله إلا باتباع سنته ، وترك ما كان على خلاف شريعته ، وذلك هو تقوى الله والحامل عليها خوف الله ، ومن خاف الله خاف منه كل شيئ ، حتى الأسد في آجامها ، فمن حصلت له هذه المرتبة طارت قلوب العدا من بأسه، وسلم من أعدائه ، وقوله " إن تلقى الأسد في آجامها تجم " أي إن تلقى الأسد التي هي جمع أسد ، وهو الحيوان المعروف ، من تكن برسول الله نصرته حالة كونها في آجامها التي هي جمع أجمة ، وهي الغابات أي المحلات التي تستتر فيها كالأشجار الملتفة، تجم بكسر الجيم بمعنى تسكت من هيبته ، فلا يسمع لها صوت خوفاً من أن يكون صوتها دالاً عليها فيأتيها المنتصر برسول الله صلى الله عليه وسلم فيقبض عليها ، وإنما قيد الأسد بكونها في آجامها ، لأنها فيها أجرأ من غيرها فإنه لا يقدر أحد على أن يدخل عليها فيها ، ولو انتزعت منه أعز ما يكون عليه، لكن إذا لقيت المنتصر برسول الله صلى الله عليه وسلم انعكس الحال ، هذا ويحتمل أن المراد بالأسد الشجعان وبالأحلام الحصون ، ويناسب حمل الأسد على حقيقتها قصة سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأسد ، وهي أنه خرج عليه سبع بالصحراء فقال " أقسمت عليك برسول الله أن تسكت فسكت "[1].

[1] اسم ذلك الصحابة مهران بكسر الميم وإنما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفينة لأنه كان يحمل الكثير من المتاع في السفر فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسماه سفينة .

ولن ترى من ولي غير منتصر
به ولا من عدو غير منقصم (١٣٧)

(١٣٧) قوله " ولن ترى من ولي " إلخ ترى بصرية على ما يقتضيه كلام بعض الشارحين ، ويحتمل أنها علمية و " من " زائدة في المفعول ، والمراد بالولي من آمن به صلى الله عليه وسلم ، وكان على هديه وطريقه والعدو ضده ، وقوله " به " أي برسول الله ، فإن قيل : ما فائدة قوله " ولا من عدو " بعد قوله " ولن ترى من ولي " إلخ مع أنه إذا أخبر بأن الولي منتصر علم منه أن العدو منقصم ، لأن من المعلوم أن أحد المتقابلين إذا انتصر كان مقابله بضد ذلك ، وبضدها تتميز الأشياء ؟! أجيب بأنا لا نسلم أنه إذا أخبر بأن الولي منتصر علم منه أن العدو منقصم ، وإنما يعلم منه أنه غير منتصر ، وذلك أهم من كونه منقصماً لأنه أو لجواز أنه قد ينهزم مع سلامته ، والأعم لا إشعار له بالأخص ، وعلى تسليم عالم ذلك منه ، فعلمه منه باللزوم والمناسب لمقام المدح التصريح ، والمنقصم : بالقاف ، وفي بعض النسخ بالفاء ، والأول أولى لأن الفصم بالفاء : القطع من غير إبانة ، والقصم بالقاف القطع مع الإبانة كما تقدم .

أحلّ أمته في حرز ملته
كالليث حلّ مع الأشبال في أجم (١٣٨)

(١٣٨) قوله " أحل ملته " إلخ هذا البيت كالتعليل للبيت قبله فكأنه قال : لأنه أحل أمته إلخ ، وقوله " في حرز ملته " أي في ملته الشبيهة بالحرز ، فالإضافة في ذلك من إضافة المشبه به للمشبه كما في قول الشاعر :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ذهب الأصيل على لُجين الماء

وإنما كانت ملته صلى الله عليه وسلم شبيهة بالحرز ، لأنها تحفظ من اتبعها من النار التي يدخلها من كفر ، فهي كأعظم الحصون المنيعة التي لا يدخلها إلا من هو من أهلها ، وقوله " كالليث حلّ مع الأشبال في أجم " أي فالنبي صلى الله عليه وسلم حل مع أمته في ملته كالليث حل مع أشباله في الأجم ، فكما أنه لا يستطيع أحد الدخول على الليث مع أشباله في الأجم ، لا يستطيع أحد الدخول على رسول الله

صلى الله عليه وسلم مع أمته في ملته ، والليث هو الأسد ، والأشبال هي أولاده ، والأجم جمع أجمة وهي الغابة أي الشجر الملتف ، ولا يقال ما أفاده قوله سابقاً " إن تلق الأسد في آجامها تجم " ؟ لأنا نقول : الأسد إنما تجم في آجامها من المنتصر برسول الله صلى الله عليه وسلم كما استفيد مما تقدم ، وهذا لا ينفي أن غيره يخاف منها كما استفيد مما هنا .

كم جدّلت كلمات الله من جدل

فيه وكم خصم البرهان من خصم (١٣٩)

(١٣٩) قوله " كم جدّلت كلمات الله " إلخ لما كانت النصرة تارة تكون بالسيف وتارة تكون بالحجج ، وقد تقدم الكلام عن الحالة الأولى أخذ يتكلم عن الحال الثانية فقال " كم جدّلت كلمات الله " إلخ وكم خبرية في الموضعين بمعنى كثيرا ، والمجرور تمييز لها ، وجدلت بتشديد الدال ويجوز تخفيفها ، أي قطعت وأزالت جدالة ، وكلمات الله هي القرآن ، والجدل بكسر الدال اسم فاعل من جدل جدلا أي أحكم الخصومة إحكاماً ، وقوله " فيه " أي في أمره صلى الله عليه وسلم ، وقوله " وكم خصم البرهان من خصم " أي وكثيرا خصم البرهان الذي هو الدليل القاطع من خصيم بكسر الصاد وهو شديد الخصومة ، وفيه الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل ، والتقدير : من خصم فيه أي في أمره صلى الله عليه وسلم ، وحاصل معنى البيت :

كثيراً ما أزال القرآن جدال المجادل في أمره صلى الله عليه وسلم وكثيراً ما أزال الدليل القاطع خصومة شديد الخصومة في أمره صلى الله عليه وسلم ، والأول إشارة إلى ما وقع في القرآن من جواب المعاندين السائلين له صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما نقل من أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين ، فإن أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبي ، وإن أجاب عن البعض وسكت عن البعض فهو نبي فنزلت قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذي القرنين ونزل " قل الروح من أمر ربي " (الإسراء : ٨٥) ، فأحال علمها إلى ربه ، والثاني إشارة إلى ما وقع منه صلى الله عليه وسلم من الآيات حين سألوه آية على رسالته ، كانشقاق القمر وغيره ، ولا يخفى أن عطف الثاني على الأول من عطف العام على الخاص .

يقول كاتب هذه السطور : إضافة لا بد منها :

قصة الأسد مع سفينة

روى ابن سعد وأبويعلى والبزار والحاكم وصححه والبيهقي عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ركبت سفينة في البحر فانكسرت فركبت لوحا منها ، فأخرجني إلى أجمة فيها أسد ، إذ أقبل الأسد فلما رأيته قلت " يا أبا الحارث ! أنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يبصبص بذنبه حتى ضربني بجنبه كأنما سمع صوتا أهوى إليه ثم أقبل يمشي إلى جنبي حتى أقامني على الطريق ثم همهم ساعة ، (الهمهمة هي الكلام بالخفية) فرأيت أنه يودعني " .

(رواه البزار رقم (٢٧٣٣) والطبراني في " الكبير " رقم (٦٤٣٢) وذكره البيهقي (٢٦٦/٩) وقال رواه البزار والطبراني بنحوه ورجاله ثقات، ورواه الحاكم في " المستدرك " ٦١٩/٢) وقال حديث صحيح الإسناد .

أما عن ذلك الصحابي الجليل :

فاسمه مهران وكنيته أبو عبدالرحمن ، وقد أعتقته أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها وشرطت عليه أن يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ما عاش ، ولقبه النبي سفينة لأنه سئل عن اسمه فقال : اسمي قيس فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم سفينة ، قيل : لم سماك سفينة ؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه أصحابه فثقل عليهم متاعهم فقال " أبسط كساءك " فبسطته فجعل فيه متاعهم ثم حمله عليّ فقال : " احمل ما أنت إلا سفينة " ، فقال : لو حملت يومئذ وقر بعير أو بعيرين أو خمسة أو ستة ما ثقل عليّ ، له أربعة عشر حديثاً .

(سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – وزارة الأوقاف القاهرة – ١٤٣٢ هـ/٢٠١١ م ، الجزء العاشر ، تحقيق وتعليق الشيخ عبدالمعز الجزار) .

الدعوة الإسلامية :

الهاربة إلى الله

(فتاة مسيحية تحكي قصة رحلتها في سبيل البحث عن الحق والهداية)

بقلم: السيدة فاطمة راحلة

عربها محمد عبد الكريم الهدوي ، كيرالا- الهند

قبل الإسلام :

منذ نعومة أظفاري كنت منبهرة بطبيعة خلابة تحوط بها قريتي . . . دروبها المتضايقة والملتفة بالشجيرات الغناء التي تترقرق عليها خضرة جذابة جعلتني أنمو بفتوة جياشة تعشق الجمال ، مع أنها ساعدتني للإندماج في هذه الطبيعة الجميلة فأصبحت أتماسك بثقافتنا الريفية الخالصة بدون خلط مشين بالمدنية الزائفة . . . وهذه الثقافة الطيبة التي كانت ترافقني أيام نشوئي في البيت الهادئ ، الممتلئة فيها رصانة الدين وهيبته ، قد ساعدتني كثيراً في مسيرة حياتي القادمة على أن أعود إلى فطرتي الأصلية . . .

ولدتُ في أسرة متوسطة لأبوين مسيحيين ، وكانت بصفتها متحفظة للغاية في أمور الدين ومتدينة جداً . ولا ننقطع أبداً عن العمل بنواميس الدين وأنظمته المتعارفة . وكانت الكنيسة ذات أهمية في حياتنا اليومية .

أبواي كانا من أصحاب الكاثوليكية ، فنشأت كاثوليكية ، ومنهما نهلت تعاليم المسيحية الأولية شكلا وأسلوباً ، ولم تكن عقليتي نضجت بدرجة أنني أستطيع الدخول معهما في مناقشة حادة ، حتى أستوعب تلك الفرق كلها في الدين المسيحي الذي يتشعب إلى فرق غير معدودة . وبقدر ما كان والداي متزمتين في الدين قدر ما أصرا على نشوئي على التحفظ والتزمت . . فكانا يحرصان علي كل الحرص في أن يتخذا مني شخصية مثالية ، متدينة . وحرصوا أيضا على أن لا يوجد نقص في تعليمي وتدريسي ، ولم يحبا قط أن ينتسب إليهما عار التقصير في القيام بتربيتي . . .

فذهبت في مبتكر عمري إلى الدير . وقد بدأت حياتي في الدير منذ السادس من عمرى ، ذلك العمر الذي يغدو فيه أصدقائي إلى المدرسة

ويروحون اليه .

أذهب كل يوم إلى الكنيسة . أقوم بالصلاة والدعوات المفروضات وأرجع منها ولا يكون لدي من شغل يذكر فأمضى أوقاتي أقرأ أو أتفرج مع صديقاتي في الدير ، وأروح عن نفسي بالحضور في حفلات الدعاء . . . وكانت تلك الأيام أيام نزهة وتفرج .

عشت ككل من يعيشون ممن حولي من الأقارب وأفراد أسرتي وصديقاتي ، ذلك العيش الزائف الذي لا معنى له ، لم يكن يهمني شيء في حياتي إلا المضي والمواكبة مع الحياة حولي . كنت أصلي وأدعو ، ولكنني لم أتفكر قط لمن أصلي ولمن أدعوه ؟ لأنني كنت قد اتخذت لنفسي طريق الأسلاف وانتهجت منهجهم الموروث . هذه هي طبيعة الإنسان أن تصرفه الأشغال والمهام الدنيوية عن التفكير والتأمل عن نفسه وربه ، وهو مشغول في كل وقت ، يؤمن بوجود الله ولكنه لا يتعدى إيمانه حدوده الظاهرة ، يعيش متشاغلا عنه ، وإذا أصابته مصيبة أو مسه ضر فيدعو له مخلصاً ومتضرعاً ، ثم إذا فرج الله عنه استدبر وتولى عنه ، لا إخلاص في الإيمان بالله . . . . إن الله للإنسان ليس إلا من يستند إليه حينما يضيق ذرعاً ويواجه المشاكل والهموم . . . . ولكن هل هذا صحيح ؟

مرت بي أيام كثيرة وأنا لم أولِ لما يجرى فيما حولي من الأحداث والأمور اهتماماً . ولم أكن أعلم أنني تماديت بالسير في الطريق المظلم إلا بعد ما تضاءت ومضة نور من الحق والهداية بعد بحث طويل . . . .

ومع الوقت ، أي مع ما كبرت وعلمت بعضا من الأمور وجدت نفسي في مأزق عقدي خطير ، وكان يجب علي أن أخرج من ذلك لأنه يلاحقني حينا فحينا . . . واستنكرت أن أكون مع أناس لا يفكرون فيما يسمعونه ويقرؤون فيه ولا أحببت أن أكون من زمرة الانفعاليين والآليين . لا بد أن يكون لكل شيء في العالم معنى ومنطق . . . ونمت معي فكرة أنه يجب علي أن أعثر على حلول تشفي غليلي وترضي فطرتي . . . . . .

رحلتي إلى الإسلام :

لم أكن أعرف عن الإسلام شيئا ، ولم أسمع عنه إلا نبذة يسيرة لا بد أن يعرفها كل من يعيش في مجتمع مزدوج مثل الهند . لم أفكر قط في حياتي أنني سأختار يوما ما طريق الإسلام ، وأعتنق تعاليمه ، وأعتز

به، وألتقي فيه بمأمني وملجإي وأجد فيه تفسيرات مقنعة لتساؤلاتي ... ولم تكن من المفاجأة والمصادفة أن أصبحت ذات يوم مسلمة بتمام معنى الكلمة ، ولكنه كان ذلك نهاية لرحلة طويلة مغامرة ما بعدها رحلة قمت بها في حياتي ....

كنت أكره الإسلام بشدة ، لا ، كرهت كل ما كان له أدنى تعلق به ، كرهت شعاره وأزياءه ، وتقاليده حتى أصوات الأذان التي ترتفع من منارات المساجد وكرهت كل ما كان يمتاز به المسلمون عن المجتمعات الأخرى في العالم .... وذلك أنني تعودت ، منذ صباي ، على الاستماع إلى أن الإسلام مصدر الإرهاب والتطرف ، والقتل والتدمير. ومن ذا الذي يستطيع أن يحطم الأوهام التي انغرست في القلب ويخرج من مخالبها المطبقة بتلك السرعة ؟!

ولكن مشيئة الله التي لا راد لها ، كانت غير ذلك ، فأراد أن يشرح صدرى للاسلام وهو الهادي إلى سبيل الرشاد . وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: "إذا تقرب العبد مني شبرا تقربت منه ذراعا ، وإذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا وإذا أتاني مشيا أتيته هرولة وإن هرول سعيت إليه وأنا أسرع بالمغفرة"[1]

ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن هذا الحديث السالف الذكر لحبيبي محمد صلى الله عليه وسلم كان بالنسبة إلي صدقا مأة بالمأة ، لأنني طلبت الله بكل قلبي وأبيت إلا أن أجده . فبحثت عنه في كل شيء ، وأي شيء وكنت متأكدا بأن الله موجود وإن كان الله في الوجود فلا بد لي من أجده ...

كنت قد بدأت البحث عن الله الحق في بدايات دراستي في الدير ، وكنت مقلقة جدا على أن شيئا ما ليس واضحا بشأن "الله" في جميع المعتقدات . و"*ديوا نوبا نامهلوو*" أي "الله واحد ولكن الأسماء مختلفة" هذه المقولة التي قالتها مدرستي أيام كنت في الصف الرابع لم تزل تدور في قلبي ولكنني لم أحفل بها ولم أفكر عن أبعادها المعنوية وتعقيداتها العقدية . ولكن المقولة نفسها عادت إلي حينما كنت في الصف الثامن ،

[1] متفق عليه

وهي تمر بخاطري لتثير في نفسي شكوكا كثيرة . فهي جعلتني أتأمل في القضية مرة أخرى وأجبرتني على أن أعثر على حل مقنع . تساءلت كيف يمكن أن يكون الله واحدا والدين مختلف؟ وما هو منطقه؟! وكيف يحصل ذلك ؟ أليس يكفي لله الواحد دين واحد ؟ أليس من الواجب أن تكون حياة الناس كلها على نمط واحد ما دام الله خَلَقَ الإنسانَ على نمط واحد؟ رغم كل ذلك ، هناك ديانات مختلفة ، ولكل ديانة آلهة خاصة بها حتى لا يهتم بها أتباع ديانة أخرى ولا يعرفها . . فمثلا أن النصارى يؤمنون بالثالوث الأقدس والهندوس يؤمنون بآلهة ليس لها عد ولا حصر ، والمسلمين يؤمنون بإله واحد وهو الله . ولا صلة فيما بينهم تربطهم بطريقة واحدة إلا أنهم يضربون بعضهم بعضاً ، سباً وعتاباً ، ثم إذا نظرنا في كلٍ إله لهم جميعا نجده يختلف عن آخره في الأساليب ، والصور ، اختلافاً جذرياً وعلاقة الخلق مع الإله المعين تختلف كذلك ، فمثلا أن علاقة المسلمين مع إلههم ليست هي علاقة النصارى مع إلههم ، وتفسيرات الهنادك عن الإله لا تمت بصلة ما إلى تفسيرات النصارى والمسلمين عن الإله . . . حالة غريبة جدا . لم أستطع أن أحسم الأمر دفعة واحدة . ووجدت نفسي في موقف عجيب جدا ، لقد وقعت في مشكلة كبرى تمس الحياة كلها بسبب كونها تتصل بمصاير الإنسان فيما بعد الحياة الدنيوية . لذلك مما كان ينبغي علي أن أجد لأسئلتي جوابا : من هو الإله الحقيقي ؟ وأي إله هو المنزه ؟ هل الثالوث أو الشرك أو التوحيد ؟ أي من ذلك الذي يجب علي الإطمئنان إليه ؟ لا أشك في أن هناك إلها يدبر الكون ويلملم شئونه وإلا من الذي يكون رتب هذا الكون بهذه الدقة المتناهية . .؟ ومن الذي يكون صمم هذه الطبيعة التي لا مثيل لها بهذا التصميم الجميل المنبهر ؟ هل أستطيع أن أتركه وراء ظهري لو أريد في هذه الدنيا الفانية حياة ذات معنى وصدق وأمانة . . تفكرت كثيرا ولا أملك موقفا من هذا الأمر ولم أصل إلى محطة أتوقف فيها . . . أمضيت أمدا طويلا وأنا أحمل هذه المشكلة في طيات نفسي ولكنني لم أفهم شيئا ولم أطمئن إلى أي شيء ، إلا أن التناقضات المدهشة تعوق دون الوصول إلى حلٍ ! ومع الوقت نسيت الأمر . . . .

وكنت قد سمعت عن كتب الهندوس ولم أقرأها . كانت المفاجأة

أن سمعت من الأستاذ للعلوم الإجتماعية ، حينما كنت في الصف العاشر، أثناء محاضرته أن الكتاب المقدس لدى الهنادك هو الفيدا وليس بهاغافاد غيتا[1] ، كما يتوهمه كثير من الناس . وكان في هذه الكلمة للأستاذ ما يكفي لإثارة فضولي مرة أخرى . . . عقدت العزم على قراءة فيدا عسى يوجد فيه ما يهديني إلى الله الحق ، وما فيه من فكرة الإله . ولسبب أنني تعلمت في الدير منذ نعومة أظفاري كان لي إلمام تام عن الإنجيل والكتاب المقدس والإله وغيره من المعتقدات التي نمارسها نحن النصارى . فطبعا لم تكن في نفسي تلك الرغبة التي أشعر بها في قراءة فيدا ، فكون الإنجيل في حوزتي على الدوام جعلني أفكر بأنه من الممكن قراءته في أي وقت ولا حاجة لارهاق النفس كثيرا في ذلك لأنني كنت عالمة عن كل ما فيه مقدماً . ولكني من أين أجد فيدا ؟ وليس سهلا أن تحصل على الكتب الهندوسية بسرعة ما نريدها لأنها لا توجد - في كثير من الأحيان- عند كل من نطلبه إياها كالقرآن والإنجيل لدى أصحابهما . فتركت البحث عن فيدا وتمكنت من الحصول على نسخة من بهاغافاد غيتا ، من صديقة لي ، وهي بصفتها كانت تهتم بدراسة الكتب الهندوسية . وانتهيت من قراءة هذا الكتاب في فترة وجيزة ، حيث أصابتني خيبة الأمل على أن مطلبي لم يتحقق بعدُ لأنني كنت أبحث بين سطورها إلها في حقيقته ولكنني لم أجده فحسب بل كانت كلها مجموعة من الحوار الذي جرى بين "كرشنا وأرجنا" في مناسبة الغزو .

لم تكن هذه مما تروِّي غلتي . . . كنت أبحث عن شيء أكثر من هذا كله . . . ولكنني تعلمت عن آلهة الهندوس كثيرا متمنية أنها ستنير لي ، ذات يوم ، طريقا في دروب حياتي . . . واطمأننت لحين إلى تلك الآلهة التي سمعت عنها كثيرا في هذه المدة من قصص عجيبة مذهلة . . . لم أتطرق إلى فكرة أن الديانة القديمة التي لا يُعرَف تاريخها لا تخلو من أن تحفها أوهام لا أصل لها وتقاليد لا مبرر لها ولكنني فكرت أن العجائب

---

[1] بهاغافاد غيتا Bhagavad Gita، يعد كتابا مقدسا في الديانة الهندوسية، ويعود تاريخ كتابته إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وهو أصلا من نصائح الرب كرشنا لأرجونا، الأمير الثالث لفانداواس عندما تردد وتراجع في محاربة الكاوراواس بني عمومته، تشجيعا له وتفسيراعن أهمية القيام بالحرب مع أقاربهم.

التي سمعتها لا يستطيع أن يقوم بها إلا الآلهات . . أما تعددها فقد لا يكون تفسيره كما أعتقد ، بل إن الله واحد في الأصل ولكنه يتجسد في أشكال وصور مختلفة بحسب الحاجة ليحقق أمورا معينة . أنهيت البحث عن الله الحق وأصبحت مسرورة . . . .

سارت الأيام مسيرها . . . رأيت بعض الآلهات التي يعبدها الهنادك في صور مشوهة جداً . . ففكرت كيف يكون هذه الصور الشوهاء القبيحة كلها إلهة لي .؟ صور تبث الخوف ؟! أليس من طبيعة الإنسان أن يفزع إلى الله كلما يجتاحه الخوف وينتابه الرعب على أنه مزيل الخوف ودافع البليات ؟! فكيف أستند إليها حين الخوف وهي نفسها تخيفني . . .؟ فضلا عن كل ذلك ، هل يكون الإله قبيحاً ومشوهاً إلى هذا الحد .؟ ولماذا يعبد أتباع الديانة الهندوسية هذه الآلهة التي تترك في نفس الإنسان انطباعا غير جيد في شأن الإله الذي ينبغي أن يكون متصفا بصفات الكمالية ومنزها عن صفات العيب والعار . . . هل من الصحيح أن يكون المعبود ضعيفا من الإنسان بدرجة أنه يمكن لي - هذا المخلوق - مثلا أن أنقل هذه التماثيل من المكان الذي وُضِعتْ فيه إلى مكان آخر؟! أو أنه يمكن لي أن أحطمها تحطيما أو أفعل بها كل شيء ألهم إلا إذا احترمتها .؟!

ما أخبث هذا العالم . .! أمن المعقول أن يُقْتَلَ الخالقُ ربُّنا تغريقا في الماء كما هو الأمر في " جنباتي[1] " حين يقوم الناس بغرقه في الماء بمناسبة احتفال جهترتهي .[2] فالإله الذي من المفترض أن يكون حاكما كيف يجوز أن يكون محكوما ويصير تحت تصرفات الإنسان المخلوق ؟ ما أنكر هذا المنطق ؟

ما الذي جعل كمية كبيرة من الناس سُدَّجًا لا يعقلون . . ولماذا لا

---

١ جنباتي Ganapathi أو غنيشا Ganesha ، هو إله هندوسي. وله رأس الفيل وجسم الإنسان وأربع أيد بحسب التقاليد الهندوسية.

٢ هذا احتفال يقوم به الهندوسيون الذين اتخذوا آلهة جنباتي معبودا خاصا لهم، بمناسبة حلول شهر جنغم (في شهري أغسطس وأكتوبر) وقد يعرف أيضا بونياكا جهترتي" بل هو الإسم المشهور في الولايات الشمالية في الهند التي تحتفل بها كثيرا. وفي هذا اليوم يشترون أصنام جنباتي ويزينونها بالزهور والألوان ويكون انتهاء هذا الإحتفال بتفريق هذه الأصنام في الأنهار والبحر بعد عشرة أيام من المناسبات الإحتفالية آملين أن يتشرفوا بمجيء جنباتي في عام مقبل ايضا.

يجتهدون في العثور على الله الحق . . . وإذا عبروا هذه الدنيا على هذه الحالة بعد فترة يستهان بها هل وجدوا إلههم الحقيقي أم لا يريدون ذلك أصلا . .؟ وعاودت إلي تلك التساؤلات نفسها التي حسبت بأنني وجدت لها تفسيرا مقنعاً .

طرحت خلفي مثل هذه الهموم والأفكار التي كانت تطاردني منذ زمان وأصبحت غير مبالية بها بيد أني لم أفقد إيماني بالله تماما . . . وقد صارت الأديان كلها مما لا وجود له في قلبي . اعتقدت أن المهم هو أن يتحلى الإنسان بالتقوى ومكارم الأخلاق بصرف النظر عن الأديان وآلهتها والمعابد والكنيسة الخاصة بها . فتساوت عندى التماثيل والأحجار والأصنام وكل شيء . . وبدأت أنشغل بشؤوني الدنيوية وصرفت اهتمامي إلى مسراتي وأفراحي . . .

ولكن قلبي لم يستقر ، وأنى القرار لقلب يؤمن في أعماقه أنه لا بد للإنسان من أن يلجأ إلى الله في حالات كثيرة ؟ ولكنه كيف أتجه إلى الله مادمت مجهولة عنه . . . وإلى أي إله أتجه ؟ وما الطريق الذي يجب على العبد أن يدعو له ويصلي . . . ؟

كلما أردت أن أقمع هذه الأفكار بمبررات كثيرة ازداد وقعها على قلبي بمرور الأيام ، آمنت في كل إله في الدنيا راجية أن يسمعني الإله الحق ويهديني إلى صراط مستقيم . . . إقتربت مني امتحانات المرحلة الثانوية . فغزت رأسي مشكلة عدم حصولي على إلهي الحقيقي . . أريد الدعاء وأن أسأله حاجاتي وأن أشكو إليه بثي وحزني . . . وأثناء الإمتحانات قمت بالدعاء لجميع الآلهات . فقررت أن أرجع إلى يسوع المسيح الذي كنت أدعو له وأصلي وأطمئن إليه لأنه كان عندي رمزا للسلام والمحبة وإن كان في الحقيقة إلها ليرشدني – لا محالة – إلى الخير ، لأنه يحب الناس ويسمع شكاواهم كما فهمتُ .

بينما كنت كذلك ، ذهبت إلى بانكلور لمواصلة دراستي لمرحلة البكالوريوس واتفق لي خلال ذلك أن أعرف من بعض الأصدقاء أن أتباع البنتكوس[1] (الخمسينية) هم المهتدون حقا من المسيحيين . فذهبت إلى

[1] الخمسينية هي حركة دينية بروتستانتية ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين وهذه الحركة تختلف عن غيرها بالإيمان

كنيستهم . وفي البدايات ، كنت لا أحب الأناشيد وعمليات الرقص وصفقات اليد التي كانوا يقومون بها داخل الكنيسة . ولكنها صارت مألوفة لي وبدأت أحبها وأطمئن إليها ووجدت فيها بعضا من راحة البال حتى استطعت أن أعتقد بأن الله نزل من السماء في صورة الإنسان لينقذ البشرية كلها من الضلال وهو ابن له ومات مصلوبا كفارة لخطايا البشرية أجمعهم .

حزنت كثيرا على ما ارتكبت من الذنوب الخطيرة بأنني طلبت إلها غير يسوع الإله مع كونه طيب القلب ولين الجانب . فكرت كم طيبا هو المسيح ابن الله . . . نعم الإله هو ! فما الذي دفعني للسعي خلف عدة آلهة غيره ؟ لمت نفسي واعتذرت إلى الله . . . وتبت إليه ، ووعدته أنني فيما بعد لا أفعل خطأ ولا ذنباً . . . هكذا ارتسخ الإيمان بالمسيح الإله في نفسي . .

كنت قد فضلت مادة "تصميم الأزياء والموضات" في مرحلة البكالوريوس للدراسة العالية ، وفي ذلك الوقت أتيحت لي فرصة التمتع بمباهج الحياة وجربتها بتمامها .

ورغم كل هذه المظاهر كنت أشعر في قرارة نفسي أنني أفقد شيئا ما ، فأنظر إلى السماء بشرود متأملة لفترة طويلة في أوقات الفراغ دون اللحاق مع أصدقائي وأحببت العزلة لنفسي . . وفي أحيان العزلة تلك بدأت أتفكر عن الله . . . وكان كلما أفكر عنه كنت أتصور المسيح بسبب أنني أومن بأن المسيح هو الله .

ذات يوم ، قال لي أحد أتباع بنتكوس أنه لا يحب التمثيلات التي يلعبها هؤلاء الناس لأنهم يعبدون المسيح ولا يعبدون الله الحق . . . يهودا هو الله وليس المسيح كما يقولون . ووجه إلي نصيحة لأقرأ الإنجيل بتعمق . وكان طبيعيا أن أثار هذا الرجل الذي سب المسيح غيظي واحتدى النقاش

بأن جميع المسيحيين بحاجة لأن يعيشوا اختبارا فريدا لكي يكونوا مسيحيين فعلا ويسمى هذا الاختبار بمعمودية الروح القدس. وهذا الاختبار يجب أن يكون مطابقا لما عاشه رسل المسيح الاثنا عشر بحسب ما ورد في الكتاب المقدس عندما حل عليهم الروح القدس في اليوم الخمسين لصعود المسيح للسماء (يوم العنصرة). وكان حلول الروح عليهم جلياً من خلال عدة علامات، أبرزها: التكلم بألسنة مختلفة، التنبؤ، وشفاء المرضى.

بيننا في هذا الموضوع وخلت أيضا لعله يكون جاهلا جدا عن المسيح وألوهيته لأنه يدعي بما لا يدعي به عدد كثير من القساوسة والعذراء على مستوى العالم . . هل هذا يعني أن أتباع الكنيسة التي لا تحصى في العالم على خطإ وهذا الرجل الوحيد على صواب ؟ ومما يعقل أن يخطأ في شيء ما واحدٌ أو اثنان ولكنه مستحيل تماما أن يقع جم غفير ممن يعبدون المسيح في خطأ . اعتقدت أن هذا الرجل لا بد أن يكون في الحد الأقصى للجهل . إنني لم أحتفل به فقط لكنني ضحكت منه .

انقضت أيام كثيرة بعد ما لقيت هذا الرجل البنتكوسي وسخرت منه ، إلا أنه قد خلف في ركن من أركان قلبي تأثيراً طفيفاً يجبرني ويحثني على قراءة الإنجيل ، بشكل صحيح .

وكان من الغريب جدا ، خاصة إلى شخص مثلي الذي شمر عن ساعديه ليطلب إلهاً حقيقياً أن أسمع من نصراني أن هناك إلها غير المسيح، حتى تيقنت أنني قد أخطأت في مرحلة ما لبحثي عن الإله الحق .

ولكن قلبي لا ينهض لقراءة الإنجيل لأنني - كما أسلفت - أملكه وأحوزه ، وكان لي علم سابق عما فيه من المضامين فلست متعجلة في شأن الإنجيل . ولكن لا بد لي من أن أدرس الأديان مرة أخرى لأحقق إن توجد في أي واحد منها تعليمة صادقة وتفسير صحيح للإله . اعتزمت على إعادة ما قمت به من دراسة ولكن هذه المرة علي أن أكون جادة وحذرة أكثر من أي وقت آخر .

جمعت بعضاً من الكتب التي تساعدني على التعرف بالأديان المختلفة ، واتصلت ببعض أصدقائي حيث تلقيت منهم عونا كبيرا ومساعدة جميلة حتى استطعت أن أفهم كثيرا من الأمور المتعلقة بالدين . و استفدت من صديقتي التي كانت تواصل دراستها في " فيدا "[1]، وحصلت منها على معلومات ترتبط بـ" فيدا " وغيره من الكتب المقدسة في الديانة الهندوسية وأطلعتني على أشياء مهمة . وهي التي قالت لي إن

[1] "الفيدات" أربعة هي رك فيدا، يجر فيدا، ساما فيدا، أتهروا فيدا، وهي من أقدم الكتب في تاريخ البشرية أما كلمة "فيدا" فمعناها "العلم والمعرفة"، ولا يستطيع تحديد الفترة التي كتبت فيها الفيدات بالضبط، إلا أن تاريخها يرجع إلى ما قبل الميلاد للمسيح بحسب علماء الهندوسية، ومن معتقدات الهندوس أن الفيدات كتبها القديسون بالهام في أزمنة مختلفة قديمة جدا.

الفيدات لم تكن توجد في هذه الصورة الحالية كما هي بين أيدينا غير أن "وياسن" هو الذي قام بترتيبها بشكل منطقي وكان قد كتبه عن سبيل السماع بعد فترة كثيرة لعصر الفيدات .

هكذا تعلمت عن كل الديانات المهمة في العالم فيما بينها الديانة البوذية ، والجينية ، والإسلام . . وفهمت أن كل ديانة تتحدث عن أصحابها فمثلا أن الدين البوذي[1] يتحدث عن أتباع بوذا ، والجيني[2] عن أتباع مها ويرا والإسلام عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الأعظم .

وفي هذه الأثناء ، حينما أقدمت على التعرف بالإسلام وتعليماته فاجأتني صديقتي الأخرى قائلة علما جديدا وغريبا بالنسبة إلي تماما . . . لم يكن قولها مما أستطيع أن أضربه على الحائط إلا أن له أهمية كبيرة لشخصيتي التي لا تزال في رحلة طويلة في البحث عن الحق والهداية . . فقالت: إن القرآن يحتوى على أحاديث مطولة عن السيدة حواء رضي الله عنها وآدم عليه السلام وجبريل عليه السلام وجميع الرسل التي يتحدث عنها الإنجيل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

مثير للغاية ومذهل جداً أنه كيف يمكن أن توجد هذه الأسماء كلها في القرآن أيضا كما في الإنجيل ، وما هي الصلة بينهما ؟

والتساؤلات دارت في رأسي زمنا طويلا ، ولم أجد لها جوابا أطمئن إليه ، وسرت في العالم بغير هدى في هذه الأيام الغير القصيرة . أصبحت رهينة التأمل والتفكير لأحايين كثيرة ، وفضلت الجلوس لوحدي . . . وهكذا ، في الأخير ، قررت أن أقرأ الإنجيل بتمعن واضعة نصب عيني هدفا وحيدا هو محاولة غير منحازة ومخلصة لمعرفة الحق . . لا غير .

خلصت نفسي من الأوهام المسبقة التي تحول دون التوصل إلى الهدف المنشود . ولم أفكر عن ديانتي النصرانية ، وعن المسيح ، وعن الأب والإبن وعن مريم العذراء فأقبلت على القراءة وكان أول ما اخترته للقراءة هو " العهد القديم " ، فقرأته بين سطوره وتأملت فيها ومعانيها فعرفت أن

---

١ هذه الديانة تنتسب إلى مؤسسها بوذا سدهارتا غوتاما المولود (٥٤٦- ٣٢٤ ق. م) في لمبيانا في نيبال الحديثة. تعد من أقدم الديانات في العالم، وقد انتشرت في بلدان

٢ جنوب الشرق الأسط ...

في الإنجيل نفسه تعليمات كثيرة تدل على أن الله واحد وعلى سبيل المثال: يقول يهودا : " لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا ، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ . لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ . . . . " [1] أليس هذا القول يشير إلى أن هناك إلها غير المسيح يدعى بيهودا الذي هو الأب ، أحد أقانيم الثلاثة المعروفة ب"الثالوث المقدس" الذي تعلمته في الدروس أيام دراستي في الدير ، وازدادت رغبتي في التعرف على يهووا أكثر وماذا يقول عنه العهدان القديم والجديد وواصلت قراءتي حتى تجلت لي أمور كثيرة بشأن يهووا والمسيح . . وخلال أقواله فهمت يهووا فهما جيدا حيث وجدته رحيما رؤوفا بالعباد ، ولا يريد لخلقه إلا الخير . . . والخالق الذي يسأل عباده " لماذا لا تشكرونني وقد أنعمت عليكم نعماً كثيرة " لا بد أن يكون رحيما ، وكذلك أن الإله القادر على أن يهلك جميعا بدفعة واحدة ولكنه لا يفعل لا بد أن يكون محبا للجميع . . عبرت في رأسي مثل هذه الأمور بدون ترتيب ولا نظام . . . كلما عرفت عن يهووا في الإنجيل أحببته ، وأصبحت ألوهيته تتضح أكثر فأكثر أمامي . . . وتلك الصفات المذكورة ليهووا كانت لها علاقة كبيرة بالله الذي يعبده ويدعو إليه المسلمون . . . ووجدت في العهد القديم عديدا من أحكام إلهية صالحة للحياة الإنسانية ، وأنني للأسف لم أجد أحدا من النصارى اليوم يمتثلونها ويتبعونها ولكن رأيت المسلمين كلهم يحتفظون بها ويتبعونها أحسن اتباع كالحجاب وختان الرجل (وحكم ختان الرجل موجود في العهد الجديد أيضا) ، وغيرهما . ما أجمل الأحكام وما أنسبها للإنسان وقد كنت أتمنى تلك الأيام أن ألتزم بهذه الأمور الدينية الرائعة ولكني لم يطب لي أن أعتنق الإسلام على أن المهم في الحياة هو اتباع أحكام الله وتعاليمه الصحيحة وليس اتباع دين معين . وأتأسف في بعض الأحايين على الناس وضلالهم عن شرائع الله الواردة في الكتاب المقدس . وبمرور الأيام أصبحت مغرما بيهووا وأنا لا أدري لأنه كريم طيب جدا . وفي الوقت الذي أتذكره وأفكر عنه أبقى صالحة قانتة ثم أتشاغل عنه وأركض وراء الأزياء والموضات .

[1] سفر الخروج ٢٠ : ٤- ٥

وبعد ما فرغت من قراءة العهد القديم أقبلت على العهد الجديد ، والتي دهشتى أنني لم أجد فيه "يهووا" الإله ولكن المسيح فقط وهو الرب جعلت نفسى تطمئن إلى أن المسيح هذا يكون هو المراد بيهووا في الإنجيل القديم لكونه متمما للعهد القديم وتصديقا له أما نزوله إلى الأرض متجسدا في صورة إنسان فذلك بسبب كون الأب والإبن واحدا ولا اعتراض فيه . واستنادا إلى هذا الجمع والتوفيق بين العهدين القديم والجديد ، أحببت المسيح أيضا نظير حبي يهووا في الشدة والإخلاص .

لقد أصبحت الآن سعيدة للغاية ، لأنني وجدت إلهي الحق ، وافتخرت في سفيدائي على ولادتي مسيحية وحمدت الله العظيم على حسن حظي . . .

ولكن المشكلة تفاقمت حينما سبرت غور الكتاب الجديد وذهبت إلى أعماقه وذلك أنني وجدت فيه كثيرا من التناقضات التي لا تخضع لجمع وتوفيق . . ولا يمت العهد الجديد بصلة ما إلى العهد القديم بشكل من الأشكال ، وأحسست باختلاف جذري فيما بين الأحكام الإلهية . هل يمكن أن يكون يهووا ، اثنين وهو القائل: اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَلَكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ[1] مع أن الإله لا يكذب . فنظرت في صفحات العهد القديم الأخيرة لكي أعلم عما إذا يوجد فيها ما قال يهووا بأنه سينزل إلى الأرض في صورة إنسان ، ثم قمت بمقارنة دقيقة بين العهدين بما فيهما من الإشارات والدلائل حتى التبست الأمور علي تماما . عرفت أن العهد القديم عينه يتناقض بعضه بعضا في كثير من الأمور ، وأن المسيح لم يدع الألوهية مطلقا في العهد الجديد ولكنه قال إنه رسول الله للبشرية وفي الوقت نفسه نجد فيه قوله "أنا الأول والآخر" ، حاولت أن أبرر بأنه قال هذا على أن يهووا نفسه المسيح فلا تعارض . . ثم شككت لماذا قال إنه رسول الله ؟ . . وإن كان الأمر كذلك كان ينبغي للمسيح أن يقول إنه "الله" ليس رسول الله وهناك إشارات كثيرة في أماكن مختلفة في الإنجيل تنبئ إلى رسالته وكذلك لا يوجد فيه أبدا ما قال يهووا إنه رسول الله ونبيه . . . وهل قد يكون نسبة هذا القول إلى المسيح حدث خطأ في الإنجيل؟ وعلى أي حال قد حصل هنا أمر ما من الأمرين هو إن كان هذا من قبيل الخطأ فيتعين

---

١ متى ٢٤: ٣٥

علي أن أعترف بأن الكتاب لا يصح الإعتماد عليه لأنه محرف وإن كان هذا قول المسيح ذاته فيتناقض بين ادعائه النبوة والألوهية ، فلا بد من أن أعترف بأن المسيح كذب مع أن الإله لا يتصف بالكذب مطلقا كما ينبغي أن يكون حقا وعدلا كما ورد في العهد القديم .

تزايد في نفسي حب الاستطلاع لمعرفة حقيقة الإنجيل . . . . . !

وبصفتي طالبة لمادة تصميم الأزياء والموضات كانت لي رغبة في معرفة تاريخ اللباس وأشكالها عبر العصور والزمان حتى أنني درست من أول تاريخ البشر وكيفية لباسهم فوجدت في الإنجيل أن آدم أول البشر ورفيقته حواء عليهما السلام كانا أول الناس استعملا "القماش" في العالم، وكانا يستران عوراتهما بالأوراق في البداية ووصفهما أول البشر في العالم ، أما أنا فلم أكن أدري ماذا يحتوي عليه القرآن من المضمون تماما ولكنني بعد ما عرفت هذه الأشياء فهمت أن هناك تشابها كبيرا بين النصرانية والإسلام من وجوه كثيرة ما جعلني أشك حينا لحين هل هناك أي احتمال ليكون القرآن حقا؟

أما العهد القديم الذي يشتمل على هذه الأحكام التي بدت صحيحة وجميلة فكان حقا كلام الله ولكنه قد احتوى كذلك على كثير من الأخطاء والعهد الجديد فهو ما هو على حد علمي إلا سيرة ذاتية للمسيح تحكي فيها أفعاله وأقواله وحله وترحاله . وفيه أيضا بعض من القصص الرائعة تفيد حقارة الدنيا وبساطتها . وليس فيها نصوص أصلية لأوامر الله ونواهيه وتبدو لمن ينظر فيه بالدرجة الأولى بأن العهد الجديد مجموعة من المراسلات بين شخصين ، كأنه مجلة . وكيف يستطيع أن يكون هذا كلام الله حقا ؟! والإنجيل يقول بأنه لا يجوز عبادة شيء فوق الأرض والسماء والماء مع أن المسيح كان إنسانا عاش على وجه الأرض فلا يصلح أن يكون المسيح معبودا حسب تعاليم الإنجيل نفسه . وافرض أن الله نازل إلى الأرض متجسدا بهيئة الإنسان فلماذا قال لعباده سابقا أنه لا يجوز عبادة شيء فوق الأرض والسماء والماء ؟ أليس كلام الله خالدا مما لا يزول ولا يأتيه الباطل من أية جهة ، فكيف حدث هذا التناقض والإختلاف بين النصوص ؟

وكذلك في الإنجيل ما يقول المسيح هو " إني جئت إليكم لأقرب الأب إلى الأبناء والأبناء إلى الأب ، إن كنتم تريدون معرفتي آمنوا بي " .

وهل بإمكاننا أن نستنبط من هذا القول للمسيح بأنه أب ؟ كلا . . إنما نفهم منه أنه يجب علينا أن نتبعه ونتبع تعليماته لكي نقترب إلى الله الأب فبواسطته نستطيع معرفة الله . فكيف يكون هذا القول دليلا لمن يدعي بأن المسيح هو الله ، غير أنه دليل عليهم .

وبعد دراستي المفصلة للإنجيل فهمت أن كل ما يدعي به النصارى والكنيسة ليست بصحيحة . واظبت العزلة وأحببتها كثيرا في مثل هذه الأوقات العصيبة . تجنبت صداقة كل من كان يختل سكينتي ويعكر صفائي . أصبحت حيرى ومقلقة جدا حينما تثاقل الفكر في قلبي . . . ! وفكرت بأن هذه المشاكل التي أواجهها الآن إنما بسبب مخالفتي للأسلاف العظماء الذين أرشدوني ولا أحد من أصدقائي ممن يرهقون أنفسهم بمثل هذه التساؤلات ولا الإشكالات فلماذا أنا ؟ علي أن أتبع أقوال أساتذتي وأسلافي وإلا ينبغي علي التحمل على كل عاقبة وخيمة تأتي إلي . . .

وليس ثمة طريق بالنسبة إلي غير التوجه بتساؤلاتي إلى المسيح . وآمنت بأن المسيح هو المنقذ على أنه الوسيلة الوحيدة للتقرب إلى الله والوسيط بين الله والبشر . وهو الذي افتدى لأجلنا بنفسه ، ومات لأجلنا على الصليب ثم بعث من قبره في اليوم الثالث بعد موته ، وهو يجلس على يمين الله الأب . آمنت بهذه الأمور كلها مكرهة لأنني كنت مرتبكة للغاية . بت أتفكر كل وقت وصرت حبيسة التأمل ، لأن كلا من يهووا والمسيح يشكلان في حياتي مشاكل كثيرة . ومن هو الإله الحقيقي المسيح أم يهودا ؟ سألت يهووا الذي أحببته كثيرا إن هو مبدأ الكتاب ؟ وهل المسيح جاء بعدك ؟ المسيح رسوله أم إبنه ؟ فلو كان قد صرح بكل الأمور لما تعبت بهذا الحد في طلب الحق ؟ وهل هو يختبئ بعد أن أثار في أنفسنا هذه الشكوك كلها ؟ ولو كان قد نزَّلَ كتابا مُحكما يتضمن أجوبة شافية للأسئلة في صدورنا لانتهت المشكلة المتواجدة في الحال .

ووصلت إلى حالة لا أستطيع فيها القيام بفصل حاسم والتبست الأشياء كلها علي تماما ، ولكني أحب الله ، بكل قلبي . بالرغم من

أنني لم أستطع الإقتناع بأن المسيح ويهووا واحد بدأت أن أكتب عن يهووا في كل ورق يقع في يدي . . . عن نعمته وصفاته ، عن حبي له . وظنا مني بأن هذا سيزعج المسيح لو كان إلها حقيقيا كتبت عنه أيضا في ورق آخر غير أنني لم أكن راضية ومقتنعة بهذه الفكرة بتاتا لأنني قرأت الإنجيل بدقة متناهية وكنت محايدة في قراءتي وغير متعصبة . تشوش قلبي وليس كل شيء على ما يرام . . . فأصبح لي "تمزيق الورق بعد الكتابة" شغلا شاغلا . . . . وكلما أدعو المسيح وأصلي له يبدو الإضطراب في بسبب الفكرة أن هذه الدعوات كلها ستذهب سدى ويسخط يهووا علي إذا كان فقط الإله .

اقتربت مني امتحانات مرحلة البكالوريوس فصار تركيزي كله في المراجعة والمذاكرة استعدادا للامتحان . أما أنا فكان من عادتي أن أقوم بالدعاء قبل استهلال قراءة الكتب ولكنني إذا بدأت الصلاة أكون مترددة بدرجة كبيرة بأنه لمن أسأله فهما طيبا وقلبا مستحضرا مما لا بد منه للطالب عند المذاكرة . يجب علي أن أكتب جميع الإمتحانات جيدا لأحصل على علامات متفوقة . . لهذا ، دعوت كلا من المسيح ويهووا . لا يشك أحد يقرأ الكتاب المقدس وتعمق فيه حاضر القلب مبتغيا الصواب في أن بينهما فرق الأرض والسماء . . لم تزل هذه الفكرة تنتابني باستمرار أكثر من أي شيء آخر . . . استبدلت قراءاتي بالدعوات . . .

امتلأ قلبي حزنا . لم أستطع أن أترك هذا الأمر وشأنه دون الوصول إلى غاية معينة . ولم يزل يقع في خاطري أن هناك شيئا ما لا شك فيه ، ولا يخفى على أحد أن الإله يوجد ، وإذا كان الإنسان موجودا يجب أن يكون هناك إله خلقه وصوره . . . . ويرزقه ويتولى شؤونه . . . هل يليق للعاقل أن يقول بأن الإنسان قد تطور من القرد ، وإذا كان الأمر كذلك لماذا انقطع هذا التطور منذ أزمان كثيرة ، وإذا كانت القرود صفتها أن تتطور من حالة إلى حالة أخرى فلماذا لا تتطور في أيامنا أيضا إلى إنسان بل إلى أي حيوان آخر . . متى ومن الذي قطع هذا التطور ليبدأ مرحلة جديدة ؟ هذه الدعايات كلها مجرد أوهام يختلقها أصحابها لكي يلقي الإنسان ربه وراء ظهره .

شئت أن أترك أمرى إلى الله نفسه ، فإذا كان يسمعني ويعرف أحزان قلبي إنه – لا شك – سيهديني إلى الحق . وإنه لا يخزي عبدا يطلبه بكل ثمن . . . وهو لطيف وبالعباد رؤوف رحيم .

قررت أن لا أذهب إلى كتاب ولا إلى تاريخ بحثا عنه ، ولكنني سأدعو الله أن يهديني هو إلى خير سبيل . . أبيت إلا أن أسأله الهداية وأصررت على ذلك . . ثم انهمكت في الدعوات طول الأيام دون اهتمام بدراستي . . .

بدأت التغيرات تطرأ علي وانطويت على نفسي أكثر وأكثر . . ولازمت الصمت وعلت في وجهي انعكاسات القلب الثقيلة . . . وتأثيرات النفس المتعبة . . . بدأت أخاطب في نهاري مع الأشجار والنباتات والشمس والأحجار والنار والريح . . . . وفي الليالي مع النجوم والقمر والسماء . . . أخاطب حتى مع الطعام الذي أتناوله . . . وتوجهت إليها قائلة : إني لا أشك في أن إلهك إلهي . . . هل تخبريني من هو إلهي أنا ؟ بلغيه عني بأنني أحبه كثيرا وخرجت بحثا عنه . . . وقولي له أن يلقي إلي نظرة واحدة " ثم انفجرت بالبكاء . واختفيت في عالم آخر غير ما أنا فيه . . . وكلما أبكي كان يمر بي نسيم ممتع فقلت له : بلغ عني لمن جئتني بأمره أنني أحبه كثيرا وأن هذه المسكينة مستعدة تماما لقبوله عن طيب خاطر ، سواء لديها يهووا والمسيح وأية آلهة للهندوس ولا يهمها ذلك أصلا ، إنما تريد أن تجد إلها في الحقيقة . بكيت مر البكاء وأنهكت بشدته وابيضت عيناي من كثرة الدموع . وأهل بيتي كانوا يعرفون عما يحدث في من الطارئات .

ولكنني تمسكت على طرف الأمل بقوة وتأكدت بأن الله سيهديني . . وواصلت دعواتي الخاصة ، وتضرعت إليه .

وكانت المفاجأة أن حضر لي ذات يوم شخص جميل جدا واقفا أمامي بينما كنت أجلس بوحدي في حجرة مظلمة . . . لم أكن أعرف أنني أرى مشهدا غريبا مع أن الموقف استمر لخمس دقائق . . لم يكن بوسعي وقتئذ التفكر عن أي شيء حصل قبل لحظات كأن قلبي قد توقف . . ولكنه مع الوقت زالت عني تلك الحيرة وبدأ عقلي يعمل رفيدا رفيدا ليدرك أن الشخص الذي كان واقفا أمامي هو المسيح لا غير .

انتعش قلبي ونهض وأحسست بقشعريرة تدب إلى جميع بدني . . ولم أستطع أن أنسى ذلك الوجه الوضيء ولا غاب عن عيني ذلك المظهر الجذاب لأنه يبدو كأنه أتاني مأمورا . . . وبعد ذلك لم أضيع أوقاتي هدرا ولكنني مضيت في التفكير والتأمل . .

قررت أن أبلغ قس الكنيسة بما حدث لي من أمر سار . وكنت في هذا الشأن مستعجلة جدا لأن لي في ذلك مراداً آخر أيضا هو أن أسأله إشكالاتي وتصفيتها فأفشيت له بالأمر دون تأجيل .

وذهبت إلى القس وأخبرته ، ومع ذلك سألته فيما يخص المسيح ويهووا وكل ما تعتمل في قلبي من تساؤلات .

وجرى بيننا نقاش حاد فهو كما يلي :

أنا - من هو المسيح؟

القس - ما هذا السؤال؟ ابن الله ، ما في ذلك من شك . . .

أنا - إذا كان المسيح ابن الله فمن هو "الله"؟

القس - الأب هو الله

أنا - من هذا الأب الذي ذكرته آنفا ؟ ألا تريد به يهودا ؟

القس - نعم

أنا - هل ينجب الإله النسل كالإنس والحيوانات ؟ أليس الله كلّي الوجود ومنزها عن كل شيء ؟ فكيف يجوز له الشعور بالحب نحو امرأة معينة . . .؟

القس - شأن المسيح ليس كما تقولين . . . وإنه ليس من قبيل شعور الرجل بالحب لامرأة معينة فتزاوجا وتولدت ولدا كما هو الأمر عند الإنسان ولكنه تجسد في صورة انسان بواسطة مريم لكي يعلم الناس الحياة ويموت دافعا ثمن خطايا الناس .

أنا - لو كان المسيح نازلا فمعنى ذلك أنه كان يوجد من قبل . . فأين كان من قبل؟

القس - أما كنتِ أنت قبل الولادة في صلب أبيك . . . وكذلك كان المسيح أيضا في أبيه . . (لم أقتنع بهذا القول قط) .

أنا - لمن كان يدعو المسيح ؟

القس - لأبيه . .

أنا - أليس الأب نفسه نزل ابناً ؟ فلماذا يدعو نفسه . .
القس - ذلك أن الأب هو الذي يدير جميع شئون الإبن .
أنا - أليس الإبن نفسه الرب . . . فما هي الحاجة إلى من يدير شأنه ؟ أليس هو كاف له ؟
القس - وسبب ذلك أنه لما نزل إلى الأرض ليعلم الناس الحياة فينبغي عليه أن يعيش في الأرض كما يعيش الإنسان فيها . . .
أنا - حسناً ، افرض أنه يعيش في الأرض ويعلم الناس الحياة فلماذا يستأذنه في كل شيء ويطلب منه حاجاته ؟
(أرجعني القس ذلك الوقت وكأنما غضب غضباً شديداً . رجعت منه خائبة الأمل ولكنني ذهبت إليه في اليوم التالي أيضاً)
وفي ذلك اليوم أيضا ناقشنا حيث انتهينا في اليوم الماضي وكان ذلك كما يلي :
أنا - أيها الأب . كان من الممكن أن يعيش المسيح في الأرض ويعلم الناس الحياة . . ولكنه لماذا قام بالصلاة التي هي خاصة بالعباد؟ ولو كان المقصود من نزوله إلى الأرض تعليم الناس الحياة فقط فلماذا قضى أياما في قمة الجبل متبتلا وصائماً بعيداً عن الناس؟ يجب علينا أنفسنا أن نفكر في المسيح ، من كان المسيح في الحقيقة؟
القس - إنه يستمع إلي صامتا . . .
أنا - أيها الأب . . ألم يقل المسيح إني رسول الله . . . أليس الله شيئا آخر إذا كان المسيح رسول الله . هل منطقي أن يكون الشخصان واحدا كما لا يكون كاتب الرسالة وساعي البريد واحدا . هل تؤمن بأن المسيح كذب ؟ وإن كان إلها كما نقول فحصل أنه كان كاذبا في أقواله التي تشير إلى أنه رسول . . . وإن كنتم تؤمنون بأن المسيح كان صادقا فلا بد أن يكون رسولا لأن في الإنجيل كثيرا من الدلائل تقول بأنه من المرسلين . وقوله مثلا حين سخر منه القوم "لا يُحتَرم نبي في بلده" تلميح صريح إلى نبوته . . .
القس لم يقل شيئا ، ولكنني سألته "ألم يقل المسيح حين كان يساق إلى الصليب "أيلي ، أيلى ، لما شبقتني" يا إلهي . . يا إلهي . . . لماذا تركتني؟ وإن كان الجواب نعم نستطيع أن نفهم أن الصلب والموت فيه لم يكن من

اختياره عن طيب القلب ولكنه بالعكس كان يملك رغبة شديدة في التخلص من الصليب ولا يحب الموت على هذا السبيل فإذاً أليس من الكذب القول بأن الله اختار الموت لنفسه تعويضا لخطايا الناس كلهم . . .

لم يقل القس شيئا . . . ولكنني طرحت عليه كثيرا من التساؤلات فرأيته يستشيط غضباً على أنه قد أفحم أمام تساؤلاتي . . . وأرجعني مرة أخرى كما هو بالأمس ولكنه اقترح علي بعضاً من الحيل للتخلص من مثل هذه التساؤلات . وبعد ذلك تركت المكان .

ووصلت بعد أسبوع واحد إلى بانكلور ، لأحضر امتحاناتي . وعكفت على المذاكرة وانهمكت في دراستي غير أن هذه الأمور لم تزل تنتاب ذاكرتي في بعض الأحايين . أما القس في الكنيسة كان بالنسبة إلي في موضع احترام وإجلال لأنه كان في عيني ممن قام ببعض الكرامات ولم يستغرب ما حدث لي من مشاهدة المسيح ولكن أصدقائي استغربوا أمر رؤيتي المسيح تماما . تركت شأن أولئك الذين لا يهتمون بذلك لأن هذا الأمر ليس مما أستطيع العرض عليهم مرة أخرى حين يسألونني . . .

اتفق لي ، في هذه الأثناء ، أن تعرفت على أستاذ مسلم . كان عارفا عن الإنجيل والقرآن جيدا وعلمني أمورا كثيرة . . ولدهشتي إنه قال خلال مناقشتي معه عن الإنجيل بأن يهووا الذي يقول عنه الإنجيل هو الله بالذات الذي يتحدث عنه القرآن ، وهو الذي نزل التوراة على موسى عليه السلام والزبور على داود عليه السلام والإنجيل لعيسى عليه السلام والقرآن لمحمد عليه السلام وكذلك توجد في إنجيل متى بشارة واضحة على قدوم النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم تتميما لرسالة عيسى عليه السلام فكانت هذه المعلومات بالنسبة إلي شيئا غريبا . . ترددت وصعب علي الإيمان بما قاله الأستاذ بادئ الأمر ، ولكنني فكرت بضوء ما لدي من المعلومات التي حصلت عليها منذ فترة كثيرة فوجدت بينهما تشابها كبيرا وتأملت في العهد الذي ورد في إنجيل يوحنا فهو يقول «إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ . وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ ، رُوحُ الْحَقِّ ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ .

ذَاكَ يُمَجِّدُنِي ، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخبِرُكُمْ . كُلُّ مَا لِلأَبِ هُوَ لِي . لِهذَا قُلْتُ إِنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخبِرُكُمْ . بَعْدَ قَلِيل لاَ تُبْصِرُونَنِي ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيل أَيْضًا تَرَوْنَنِي ، لأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الآبِ»[1] . وخامرني شك هل هناك أي احتمال لكي يكون روح الحق المذكور هنا روح القدس المعني بيهووا . وذلك غير ممكن ، لأن الضمير المشار إليه ب "هو" لا بد أن يكون إنسانا . وبالتالي قصدت الإنترنت لأتصفح فيها فيما قال الأستاذ من ميزات النبي صلى الله عليه وسلم وخصائصه فلدهشتي كانت جميع الصفات التي قالها الإنجيل في شأن روح الحق صدقاً تاماً . وفي السيرة النبوية كان النبي أمينا في حياته وكان لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وكان متصفا بمكارم الأخلاق . . . وهلم جرا . وبعد ذلك بحثت في الإنترنت عن صفات الله أيضا ، فأدركت أنه هو ربي الذي كنت في سبيل البحث عنه .

أصابتني رعشة غير مسبقة ، وأنهكت تماما وتصدع قلبي . . . يا ألله يا قدير على كل شيء . . . هل كنت أنت ذلك الرب الذي بحثت عنه أمدا طويلا . . . أأنت ذلك الحق الذي تقصيته فترة غير قصيرة . . وحتى في هذه اللحظة التي أتذكر فيها عن حالتي تلك أرتجف بقوة حتى لا أستطيع إعادة التذكر عنها مرة أخرى . . .

أيقنت أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل وقد بشرنا عيسى عليه الصلاة والسلام به كما بشرنا به جميع أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام . . . وهذا هو الرسول الذي يجب علي الإتباع به . . .

ورفعت يدي إلى الله واعتذرت منه وأنا غارق بالدموع التي تنسال على خدي من فرط الفرح . . .

ولم أتمالك نفسي فقلت له: يا ألله . . يا دليل الحائرين توكلت عليك ، وفوضت أمرى إليك . . . حسبي الله أنت وحدك الذي لا شريك لك . . . وإن تحميني وتحفظني فيما بعد فلا حاجة لي إلى أحد سواك . . . إني أحبك كثيرا . . . وهذه المسكينة لا تملك شيئا لتكافئ بها إياك على نعمتك التي وهبتها . . . ولكن هذه الحياة التي وهبتها إياي فداء لك يا رب العالمين . . .

---

[1] يوحنا ١٦:١٢- ١٦

نطقت الشهادتين بأن لا إله إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله ، التي لقنني بها الأستاذ وعلى التحديد في الساعة الثانية عشرة مساء في اليوم الأربعاء من شهر أبريل عام ألفين وثاني عشر أصبحت امرأة مسلمة ، ورجعت إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها . . . وكانت هذه الدقائق من أسعد لحظات حياتي . . . .

أشعر بخسران تام حينما أتذكر تلك الأيام التي كنت فيها في الكفر والضلال . وقد امتلكت اليوم كنزا ثميناً ، وقد صرت عبدا من عباد الله عزوجل . . وأعرف أن أغلى الأشياء في الدنيا هو أن يبقى الإنسان عبده المتواضع ، وصار عندي كل شيء من الشهرة والجاه والمراتب العاليات مما لا قيمة له قط . . .

هكذا ولدت من جديد . وشاهدت عالما روحيا جميلا . . . وأحسست بكل شيء في العالم يرتعد خوفا من الله . . . ارتعشت لما سمعت الأذان أول مرة لأنني كنت أكرهه . . . بكيت أحرَّ البكاء . واستغفرت الله من كل ذنوبي . وعندما أسلمت لله الخالق واخترت لنفسي "عبوديته" شعرت بأصدقائي يفرحون . . بكيت أنظر إليهم . . . أعاذ الله كل ما في الكون حيوانات وجمادات من مكروه يصيبه . . . لقد رزقتُ ربي . . . الحمد لله . . . شكراً .

كم سرت في سبيل البحث عنك يا ألله . . وعندما شئت بقلب مخلص كم كان سهلا أن شرحت صدري للإسلام . . ولذا أفهم يا الله . . إنك تهدي من تشاء وتضل من تشاء وبيدك الخير كله . . . وأنت على كل شيء قدير . ونحن عبادك الضعفاء المقصرون . كنت بدأت رحلتي أبحث عن مبدأ "الله واحد ولكن الأسماء مختلفة" . . وفي نهاية المطاف قد انكشف هذا المبدأ أمامي حقيقة واضحة .

(والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)

دراسات و أبحاث

جبال جزيرة العرب الساحلية وميادينها

بقلم : العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي
تعريب : محمد فرمان الندوي

جبال السراة :

تعرف الهضبة الممتدة من الشمال إلى الجنوب على الضفة الغربية لشبه جزيرة العرب بجبال السراة ، وقد أحاطت هذه الهضبة بها من الشمال إلى الجنوب ، وشيئ من جنوب الشرق ، ويتصل طريقها في الشمال بجبال سوريا و فلسطين ،فتعرف المنطقة المتسعة من أقصى الشمال إلى وسطه بجبال الحجاز ، ومناطق جنوبها بجبال عسير أو بجبال اليمن ، وتسمّى السلسلة الجبلية في شرق جبال اليمن بجبال حضرموت ، ثم ليس هناك أثر للجبال ، بل ساحات وميادين ، وتعرف بمناطق شحر ومهرة وظفار، وتوجد سلسلة جبلية في شمال شرق ظفار ، امتدت إلى مناطق واسعة على جنوب شرق جزيرة الشرق ، وهي تعرف بجبال عمان .

هذه السلسلة الجبلية تقع قريبة من البحار أمامها عامة ، ويتسع في بعض المناطق سواحلها بينها وبين البحار اتساعاً ، مثل ساحل الحجاز الذي يمتد عرضاً خمسين ميلاً أو أكثر ، نظراً إلى هذه السعة يسميه المؤرخون القدامى بالمناطق المستقلة المنفردة ، ويعتبرون جبال الحجاز منطقة مستقلة ، وبهذا التقسيم تحتل جبال الحجاز جداراً بين نجد وتهامة، فتعرف بالحجاز .

فجميع جبال سلسلة السراة غير جبال الحجاز تقرب من السواحل، وهي ليست بعريضة ، فتعتبر جزءً من جبالها ، يظن الناس الآن الحجاز وتهامة أيضاً منطقة خاصة ، ويسمونها الحجاز .

إن جبال السراة ما عدا اليمن وعسير ارتفاعها خمسة أو سبعة آلاف قدم ، لكن عرضها مآت من الأميال ، تقطعها الأودية من أمكنة شتى ، يجري فيها ماء المطر في صورة سيول ، وينصب في البحر على الجانب الغربي، ثم ينجذب على الجانب الشرقي في الصحاري والميادين والأراضي الرملية ، وإن المناطق الشرقية لجبال السراة تنخفض تدريجياً ، ويُرى صبب إلى الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب نزولاً من الجانب الشرقي من هذه

الجبال ، ثم تبتدئ وهاد على مسافة قليلة في الجانب الغربي .

إن المناطق الساحلية بين الجبال والبحار ، التي تقع على الجانب الغربي أو الجنوبي تسمَّى تهامة أو غور ، وتعرف تهامة بهذا الاسم بطقسها الحار ، وغور بانخفاض أرضها ، فهناك عدة تهامات ، تعرف بجبالها ، سوى تهامة الحجاز ، لأنها صارت منطقة مستقلة رغم سعتها ، وصارت تهامة اسماً خاصاً بها .

جبال الحجاز:

سلسلة جبلية من خليج العقبة إلى قرب اليمن تعرف بالحجاز ، وهي مثل الجدار ، الذي يحول بين نجد أعلى سطح جزيرة العرب وتهامة الحجاز ، فسمي بالحجاز .

الحجاز جزء شمالي لجبال السراة ، طوله سبع مأة ميل ، وعرضه مع تهامة مأتان وخمسة وسبعون ميلاً ، وفي شرقه سطح مرتفع واسع ، يعرف بنجد ، وفي غربه ساحل واسع لتهامة ، ففي تهامة والحجاز بلدان مقدسان ومعروفان مكة المكرمة والمدينة المنورة ، أمَّا ارتفاع الجبال الحجازية فهو ستة آلاف قدم ، وترتفع نواحيها المختلفة ، أمَّا جبالها الشمالية فهي أشد ارتفاعاً ، وليس ارتفاع جبالها في الوسط كثيراً ، بل جبال هذا المكان أقل ارتفاعاً في سلسلة جبال السراة ، لكن جبال جنوبها أكثر ارتفاعاً من جبال وسطها ، وتقع عليها مدينة الطائف ، إن جبال الحجاز باستثناء جبال الحجاز الشرقية والجنوبية تبدو مسطحة وجافة ، فهي تسبب الجفاف والحرارة في الرياح بدلاً من أن تكون مؤدية إلى الخصوبة والخضرة ، وتزيد حرارة مناطقها ، فتكون مكة المكرمة رغم إحاطتها بالجبال وجوارها حارّة ، وخاصة في فصل الصيف شديدة ، إلا أن أوديتها وميادينها الواقعة في سفوح لجبال الحجاز الشرقية خضراء إلى حد ما .

الحرات :

توجد في جبال الحجاز قطع كثيرة مثل خناجر حجرية سوداء ، تعرف باللغة العربية بالحرة واللابة ، وهي مرتفعة من سطح البحر ، وارتفاع بعضها أكثر من خمسة آلاف قدم ، تتساقط الثلوج على بعضها في موسم الشتاء ، وعدد هذه الحرات كثير ، وعدَّها بعض الجغرافيين إلى مأة .

إن الحرات التي تمتد في بعض المواضع إلى عشرات من الأميال ، لا تصلح لمشي الرجال والحيوانات بوهادها ونجادها ووعورتها ، وهذه

الحرات تقع في مناطق بين تبوك ومكة كثيراً ، ومن أكبرها حرة عويرض ، وهي ممتدة إلى مأة ميل مربع بين تبوك وعلاء ، وارتفاع بعض أجزائها خمسة آلاف قدم ، وفي الجنوب تمتد حرة خيبر إلى ٣٠/ ميلا مربعاً ، وفي غربها على مسافة قليلة حرة سُليم ، وتسمى حرة المدينة ، وهي قريبة من المدينة ، وإن المدينة المنورة محاطة بحرتين : حرة الوبرة في غربها ، وحرة واقم في شرقها ، وهما لا تعدان جزءً من الحجاز ، وتقعان في منطقة تهامة ، وتكونت الحرات لدى الجغرافيين من المواد البركانية .

مدين وثمود :

المنطقة التي امتدت من العقبة إلى الوجه في الجزء الشمالي من الحجاز تسمَّى مدين ، كانت هنا مساكن قوم مدين وأصحاب الأيكة ، وفي الجنوب قوم ثمود وأصحاب الحجر ، نزل عليهم عقاب الله تعالى ببغيهم وكفرهم لله تعالى ، فقطع دابرهم ، لكن بقيت آثارهم حتى الآن، كان أشدهم بأساً وقوة قوم ثمود ، مسكنهم وادي القرى ، مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، راجعاً من غزوة تبوك ، ورد ذكره في القرآن ، قال الله تعالى : وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (الفجر : ٩) فيه إشارة إلى نحت ثمود الأحجار ، وتوجد في هذه المنطقة مداين صالح والحجر (مدينة قديمة لثمود) وكانت ثمود ينحتون من الجبال بيوتاً ، وكانت جبال هذه المنطقة متنوعة ، ومنها أثالث ، متقطع في أجزاء ثلاثة ، وفي شمال وادي القرى وادي السرحان ، وهو ممر قوافل الشام .

يعرف الجزء الشمالي من مدين بحسمى ، وجباله مرتفعة إلى حد كبير ، وترابه لين وجباله خضراء ، وفي جباله جبل مبارك ، وجبل المقنع، وجبل شفا ، وإنَّ ارتفاعها ستة آلاف قدم على أكثر تقدير ، وفي جنوب جبال حسمى جبل شامخ ، اسمه جبل سارو ، وفي الجبال الجنوبية من منطقة الحجاز جبل شامخ أيضاً اسمه جبل كرا ، وهو متصل في جنوب مكة بساحة ، عرفات بينه وبين الطائف على مسافة ، ويمرّ طريق مكة إلى الطائف من أعلاه .

مدن جبلية في الحجاز:

إنَّ أهم المدن على الهضاب الجبلية من الحجاز : تيماء وخيبر ، وحناكية والطائف وغامد وزهران وبني ، يقول عدد من الجغرافيين عن المدينة المنورة : هي إحدى المدن الجبلية في الحجاز ، موقعها نقطة اتصال بين ساحة تهامة والمدن الجبلية .

تهامة :

قد مرَّت جبال الحجاز من الوجه إلى مكة المكرمة اتصالاً بالجانب الشرقي ،وبعداً من الساحل ، فصارت منطقة واسعة في غربي هذه الجبال ، وتعرف بتهامة الحجاز أو بتهامة فقط ، وهي أجمل و أهم من جميع تهامات جبال السراة ، وتعرف تهامة باللغة العربية بالغور ، ومعنى الغور : الأرض المنخفضة ، وفي مقابلها الأرض المرتفعة ، وهي نجد.

إن تهامة وإن كانت منطقة ميدانية ، لكنها خالية من الجبال ، وخاصة في جانبها الشرقي كثير من الجبال الصغيرة والكبيرة والتلال الجبلية ، التي ليس ارتفاعها بكثير ، ويقدر بألفين وخمس مأة قدم إلى آخر حد ، وإنّ تهامة الجزء الشمالي من الحجاز ليس عرضه بكثير ، هذه المنطقة تعرف بمدين ، فساحله ليس بأوسع من سبعة أميال ، أمّا بقية تهامة التي هي في جنوب مدين فواسعة جدّاً ، وعرضه خمسون ميلاً عامة ، وإذا قدرنا حدود تهامة وجدناها تغطي جانبين : شرقي وغربي ، وفي الجانب الشرقي جبال كثيرة ، وسطحها مرتفع بالنسبة إلى الجانب الغربي ، وإنّ طول ارتفاع هذه الجبال ألفان ومأتان وخمسون قدماً ، ومكة المكرمة في هذا الجانب ، وهذا الجانب الغربي يخلو من الجبال إلى حد كبير ، بل هي منطقة ساحلية وميدانية ، وأرضه حجرية ، وممزوجة بالطين والصخور ، وإنّ جبال تهامة والحجاز جافة وأحجار مسطحة ، ويوجد جبل مرتفع في وسط تهامة ، إن ارتفاعه ستة آلاف قدم، واسمه رضوى، وهو أخضر إلى حد بارتفاعه ، وفي جانبه مساكن، تعتقد الفرقة الكيسانية في الشيعة أن الإمام محمد بن الحنفية قد اختفى فيه ، وسيخرج في يوم من الأيام ، فيوجد فيه عمران قليل للشيعة ، وهم ينتظرون خروجه من هذا الجبل .

إنّ طقس تهامة يكون حاراً ، وإنّ البحر الذي يقع أمامه غير متسع ، فيؤثر قليلا في هذا الطقس ، وإن أرض تهامة غير صالحة للزرع ، لأن ترابها صحراوي وغير أخضر ، فلا تكون صالحة بسبب قلة المياه ، لكن المناطق التي يمر بها ماء المطر في صورة سيول أو يتوقف فيها أو ينجذب تكون ذات نخل ، فتزرع ويخرج منها الماء ، فتعمر به هذه المناطق، إن مساكن أكثر المناطق في تهامة في هذه الأرض ، وقامت مساكن أخرى على سواحل البحر ، تستفيد من وسائل النقل والاتصال والملاحة ، وإن الأودية التي تمر بتهامة يقطع بعضها طولاً ، وبعضها

عرضاً، ومن أهم الأودية التي تمر طولاً وادي العقيق ، يمتد من المدينة إلى مكة ، وتذهب قوافل حجاج بيت الله عامة منه ، ومن الأودية التي تمر عرضاً أكبرها وادي الحمض ، وتعرف في العهد القديم بوادي إضم ، وهذا الوادي يمرُّ من وسط تهامة ، يغطيه أكثر الأودية المجاورة ، ومن أودية هذه المنطقة وادي الصفراء ، امتدّ من المسيجد إلى بدر ، ومرّ منه عدة مرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أهم قراها تقع على مسافة ميل ، وفيها أشجار النخيل وزروع أخرى ، وفي هذا الوادي الربذة ، التي أقام فيها سيدنا أبوذر الغفاري رضي الله عنه ، وتوفي فيها ودفن ، ويقع هذا الموضع في طريق الحجاج .

أمكنة تهامة ومدينتها الشهيرة :

إن أشهر المدن في الجزء الشمالي من تهامة المدينة المنورة . وفي الجزء الجنوبي الذي هو أوسع بكثير مكة المكرمة . ومدينة الطائف تقع في جنوب شرق مكة المكرمة ، لكنها مدينة جبلية في الحجاز ، إلاّ أن جدة تقع على ساحل البحر في الجانب الغربي من مكة ، فهي ليست أعظم وأهم مدينة في تهامة ، بل في المملكة العربية السعودية بعد مكة المكرمة ، وفي الأمكنة الشهيرة ذات النخل في تهامة : المدينة المنورة ، وفدك وينبوع ، ومرُّ الظهران ، وفي الأمكنة الساحلية الشهيرة مويلح ، ومقنا ، وضباء ، والوجه ، والأملج ، وينبوع البحر ، ورابغ وليث ، ما عدا جدة، وهي تحتل موانئ منطقية ، أكبرها رابغ ، وتقع أثناء طرق مكة المكرمة والمدينة المنورة .

إنّ تهامة صارت قصيرة منذ جنوب مكة ، فامتدت جبال السراة قرب البحر ، فارتفع طولها ، وتنتهي منطقة الحجاز هنا .

عسير واليمن :

تعرف جبال السراة بجبال عسير ، وجبالها مرتفعة جداً ، وإن قمم هذه الجبال عشرة آلاف قدم ، ومنطقة عسير ولاية غربية في الجنوب من المملكة العربية السعودية ، ويمتاز طول جبالها ببرودة الطقس وخصبة أرضها ، وكثير من مناطق عسير خالية من آثار الحضارة الجديدة ، وتوجد فيها حياة فطرية بسيطة ، ومن أشهر أمكنتها التربة ، والبيشة ، والخميس ، والمشيط ، والصبيا ، وأبها ، ونجران ، هذه مناطق داخلية ، أمّا قنفدة و جيزان مناطق ساحلية .

وتعرف منطقة جبال السراة في جنوب عسير باليمن ، وإن جبال

السراة أكثر ارتفاعاً مقابل المناطق كلها ، وإن نهاية قممها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ألف قدم .

جبال اليمن وعسير خضراء ، وهي على جهة الرياح الفصلية ، فتمطر عليها السماء مطراً غزيراً ، وهذه الجبال تكون حاجزة لنقل السحب إلى شبه جزيرة العرب ، فلا تصل سحب الجنوب إلى مناطق داخلية من شبه جزيرة العرب ولا تصل إلى الحجاز أيضاً ، فتُروى هذه المناطق والحجاز من سحب قليلة من الشمال .

وعسير اسم قبيلة ، سكنت في هذه المنطقة ، وفي الجهة الغربية من عسير ساحل ضيِّق يعرف بتهامة عسير ، فالجهة الشرقية من جبال عسير منخفضة ، وتمر بها أودية جبلية ، تؤدي إلى خضرتها وعمرانها ، وفي جهة شمال الشرق من عسير منطقة نجران ، حيث يسكن فيها النصارى ، وتعتبر مركزاً رئيساً لهم في جزيرة العرب ، اعتدت على كبارهم الحكومة اليهودية في اليمن ، التي ورد ذكرها في سورة البروج حسب تفسير بعض المفسرين ، وهي تبعد من مكة على مسافة ٩٠٠/ك،م.

إن جبال اليمن أشد ارتفاعاً في نصف المناطق الشمالية ، وأقل ارتفاعاً في نصف المناطق الجنوبية ، وهذه الجبال امتدت إلى الجنوب الغربي من جزيرة العرب ، وفي غربها ساحل ضيِّق ، فيعرف تهامة اليمن ، وفي شرقها مناطق ميدانية مرتفعة ، انخفضت قليلاً ، فتعرف بنجد اليمن.

اليمن دولة خضراء كبيرة ، تكثر فيها الأمطار ، يبلغ مقدارها عشرين ذراعاً ، وإن أعلى جبال جزيرة اليمن في هذه المنطقة ، تكون نهاية ارتفاعها ثلاثة عشر أو أربعة عشر قدماً ، ومن أشهرها جبل النبي شعيب عليه السلام ، وتمرُّ من خلال جبال اليمن أودية عميقة ، فيصعب الذهاب من مكان إلى مكان آخر ، بوعورة بناء الطرق بين مستعمراتها ، يجتاز المسافرون كثيراً من الوهاد والنجاد ، وإن اليمن ما عدا تهامة مناطق خصبة خضراء ، ولعل تسميتها باليمن بسبب البركات والخيرات المادية ، وحينما تأسست حكومة سبأ وكانت أقوى الحكومات وأكثرها تطوراً ، أقيم سد منيع ، يمسك به الماء ، فتسقى به مناطق ممتدة إلى عشرين ميلاً ، وكان هذا السد مبعث خصب وخضرة ، وأقيم في مأرب عاصمة سبأ ، ويعرف بسدِّ مأرب ، انجرف هذا السد بأمر من الله تعالى ، من كثرة المعاصي ، فتكبد خسائر فادحة ، وتبعثر نظام ازدهار قوم سبأ ، ورد ذكره في القرآن الكريم : لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ

وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ (سبأ : ١٥ – ١٦) .

إن ساحل اليمن أقل نفعاً وخصوبة من السواحل الأخرى ، يكون طقسه حاراً ومرطوباً ، لكن مياه جبال اليمن تسيل في أوديته ، فتكون منطقة خصبة إلى حد ، ومن أمكنتها الشهيرة : الحديدة ، وفحا ، وعدن، تقع على الساحل ، وهي موانئ كبيرة ، ومن المناطق الداخلية : صنعاء (عاصمة اليمن) وتعز (أكبر مدينة في اليمن) وصعدة ، ومأرب وزبيد ، وذمار ، وظفار ، ومنها مأرب قديم جداً ، وكان مركزاً شهيراً لسبأ ، وكذلك ظفار تحمل تاريخاً قديماً ، وعدن تعدّ في منطقة حضرموت ، بل هي أكبر مدنها وميناؤها .

حضرموت :

إن سلسلة جبال السراة انحرفت من جنوب غرب جزيرة العرب إلى الشرق مروراً باليمن ، ثم امتدت إلى مسافات بعيدة قرب الساحل الجنوبي، وتعرف هذه المنطقة من جبال السراة بحضرموت ، وإن جبال حضرموت جافة وغير مخضرة ، وهي ليست بأشد ارتفاعاً ، وتقل فيها نسبة الأمطار ، وفي سفوحها مستعمرات ، لكنها صغيرة ، وعدد سكانها قليل ، وبين جبالها وبحارها ساحل ضيّق ، يعرف بتهامة حضرموت ، وهو غير صالح للزراعة بضيقه وفقدان وسائل الخصوبة عامة، فتهامة هذه المنطقة تشبه تهامة عسير واليمن في وعورتها وتهامة الحجاز في قلة خصوبتها ، فهذه البلاد فقيرة من الحجاز من الخضار والثروة ، لكن توجد هنا أودية طيبة ، من أكبرها وأشهرها وادي حضرموت ، امتد وهو يقطع سلسلة حضرموت من خلالها إلى مآت الأميال، وفيه قرى كثيرة من حضرموت ، ويستفيد سكان حضرموت من أوديتها و وسائل أخرى فيها ، أكثر عمرانها في الأودية أو على السواحل ، وهذه دولة قديمة وتاريخية ، اعتاد أهلها التجارة منذ قديم الزمان ، من أهم مدنها تريم ، تقع في وادي حضرموت ، وتحتل مركزاً رئيساً ، وإن أشهر موانئها التي من كبرى بلادها أيضاً : المكلا، وهنا مدينة باسم لحَج قرب عدن ، وتسمى حضرموت باليمن الجنوبية في العهد الجديد ، عاصمتها عدن ، وهي أكبر مدن المنطقة وموانئها ، ومن مواضع حضرموت الداخلية شيون ، وشبام وشبوه ، غير تريم ، ومن مناطقها الساحلية : شحر غير المكلا ، ومدينة شحر تحمل مكانة تاريخية .

سواحل شحر ومهرة وظفار:

هذه مناطق ميدانية وغير جبلية في الشرق قرب حضرموت ، تقع بين جبال عمان (الساحل الشرقي الجنوبي في جزيرة العرب) وبين جبل حضرموت (سلسلة جبلية للغرب الجنوبي فيها) وهي شحر ومهرة وظفار، فهي تسقى من المياه الجارية من كلا الجانبين ، فتجاور ظفار عمان ، وتجاور شحر حضرموت ، وتجاور مهرة بينهما ، وظفار حضرموت موضع مختلف عن ظفار اليمن ، فظفار تعد جزءً من عمان سياسياً ، ومهرة وشحر جزئين من حضرموت ، لكن حينما كانت حضرموت ولاية من حضرموت فكانت مهرة وشحر خارجتين من حضرموت ، وتثبت بعض الدلائل أن شحر كانت تعد جزءً من عمان ، قال الشاعر :

دار سعدى بشحر عمان
قد كساها البلى الملوان

إن الجزء الشمالي من ظفار أخضر إلى حد ، يوجد فيه عدة مراع، يتجر الناس على سواحل ظفار ويصيدون السمك ، ويزرع في المناطق الداخلية قصب السكر ، وهي خضراء ، ومن أهم مدنها سلالة ، تقع على المناطق الساحلية ، وفيها مطار ، وبلدها الثاني مرباط ، وهو ميناء أيضاً .

إن مهرة وشحر ليستا خضراوين ، وأمام مهرة خليج ، يعرف بخليج القمر ، وقد اشتهرت أفراس مهرة جداً ، وتسمى بالفرس المهري ، بل استعملت كلمة المهري للأفراس الجياد .

إن الجانب الغربي لمهرة منطقة شحر ، وقديماً تستعمل كلمة شحر في معنى الساحل ، فسميت هذه المنطقة بهذا الاسم ، في جنوب هذه المناطق الثلاث بحر العرب ، وفي شمالها : صحراء الربع الخالي .

جبال عمان :

هنا سلسلة جبلية صغيرة على ساحل الجنوب الشرقي لجزيرة العرب ، تعدّ عند بعض المؤرخين جزءً من جبال السراة ، وإن طول ارتفاعها تسعة آلاف قدم أو أكثر ، وهي تشتمل على جبال عديدة ، منها جبل الظهيرة والجبل الأخضر ، وإن أشدها ارتفاعاً الجبل الأخضر ، تقع عليه أكبر قرى نزوى ، وهو مقر المناطق الداخلية لعمان ، وتكثر الأمطار على جبال عمان ، فتكون سفوحها خضراء ، وتمطر السماء في فصل الشتاء بسحب الخليج العربي ، لكن أرضها ليست بخضراء ، تثمر

بلادها من محصولاتها الزراعية ، وتضمها إلى قائمة الدول المتطورة ، لكن اكتشاف البترول فيها يجعل أرضها غنية .

سواحل عمان :

تشبه سواحل عمان التي يشتمل جانبها الجنوبي على ظفار ، سواحل حضرموت من حالاتها الطبيعية ، وتعرف سواحلها بتهامة عمان ، ولها بحار عديدة ، في إحدى نواحيها الجبال ، وهذه المنطقة الجبلية باردة، ومنطقة تهامة حارّة ، يقتات سكانها بعمل استخراج الدرر ، وصيد السمك ، والتجارة ، لكن اكتشاف البترول في نواحيها كان أكبر سبب لتنمية هذه المنطقة وثرائها .

إن الساحل الشمالي لعمان جاف وصحراوي ، ويُعَدُّ خارجاً من سلطنة عمان سياسياً ، كان يشتمل من قبل على قرى مختلفة ونصف حرة وغير مستعمرة ، وصارت الآن دولة متحدة حسب ميثاق عام ، ومن أشهر مدنها دبي، والشارقة قديماً ، وأبوظبي جديداً .

كانت أبوظبي قرية صغيرة ، بل إمارة ، لكن اكتشف هنا البترول ، فتقدم عمران أبي ظبي بسرعة مدهشة ، وتطورت تطوراً سريعاً، وهي تعدُّ الآن من أكبر المدن في هذه المنطقة ، وأثراها بين شقيقاتها الأخرى المتحدة ، واكتشف البترول الآن في الشارقة ودبي ، فازدهرتا ازدهاراً كبيراً ، وبين هذه المدن الثلاث الشهيرة هناك أربع إمارات ، ليست بأقل أهمية منها عمراناً وعدداً ، وهي عجمان ، وأم القيوين ، ورأس الخيمة والفجيرة ، كان سكان الساحل الشمالي من عمان حينما لم يكتشف البترول فقراء ، فيقرصنون مضطرين للاقتصاد في البحر الذي يقع أمامه ، فيسمى هذا الساحل بساحل القرصان ، لكن البحر الذي يقع أمامه يُعرف ببحر البنات .

إن الساحل الشرقي من عمان مثل الساحل الجنوبي في سلطنة عمان يُستخرج منه الياقوت قديماً ، ويتجر به على أوسع نطاق ، ويشبه هذا الساحل الساحل الجنوبي أرضاً زراعية ، وإن منطقة بطينة منطقة زراعية جيدة ، فمن أشهر مدن هذا الساحل مسقط ، ، وهو ميناءه ، وهو يُعَدُّ مدينة كبيرة في سلطنة عمان ، وفي قربها مدينة مطرح ، وهي أيضاً ميناء .

الساحل الشرقي من جزيرة العرب :

يشبه الساحل الشرقي من جزيرة العرب من نواح متعددة منطقة نجد الداخلية ، فيذكر بعد مناطق جزيرة العرب الداخلية .

منهج الاختلاف عند قدامى المحدثين

(مقابلة مع الدكتور حمزة المليباري حول أهم القضايا في علوم الحديث)

الدكتور عزالدين الندوي

محاضر ضيف : قسم اللغة العربية بجامعة كيرالا ترفاندرام،كيرالا،الهند

١. هل دراسة علوم الحديث تُقدِّم لدارسيها قواعد معيارية منضبطة تُوصل إلى نتائج متوافقة في دراسة الأحاديث ونقدها أو أن القضية ليست كذلك ؟

نعم ، بكل تأكيد ؛ إن علوم الحديث تُقدِّم لدارسيها أروعَ مناهجِ النقد وأكملها وأدقّها ؛ إذ يَكمُن وراء مصطلحاتها ما يُشكِّلُ قواعدَ النقد التي طبّقها المحدثون النقاد القدامى بدقّة متناهية . فكلُّ دراسة لا تستهدف الوصول إلى تلك القواعد النقدية المنضبطة تُعدُّ عملا ناقصاً .

٢. إذا لم تكن القضية كما سبقت الإشارة إليه في السؤال الأول ، فما هي أهمُّ أسباب اختلاف علماء الحديث والمتخصصين في علومه في تصحيح الأحاديث وتضعيفها؟ .

أما الاختلاف بين النقاد في التصحيح والتضعيف فلا يعني ذلك أبدا عدمَ دقّةِ منهجهم ، ولا عدمَ انضباط قواعدهم في ذلك ، وإنما يعني أن كلَّ واحد منهم كان يعتمد في نقد الأحاديث على معلوماته الخاصة التي يستحضرها ؛ إما كاملة وإما ناقصة ، دون تقليد بعضهم لبعض ، إلا في حالات نادرة يَفقِد فيها الناقد الحيثيَّاتِ الضرورية للتصحيح أو التضعيف .

ومن المعلوم أن أئمة الاجتهاد من الفقهاء كثيرا ما يختلفون في الاستنباطات الفقهية ، على الرغم من اتفاقهم على أن الكتاب والسنة مصدران للتشريع . ولم يستنتج أحد من وجود الاختلاف بينهم أنهم غير متفقين على مصدرية التشريع .

وكذلك أئمة الفقه في مذهب واحد يختلفون أيضا ، على الرغم من كونهم منتسبين إلى مذهب واحد تنضبط فيه أصول الاجتهاد وقواعده ؛ فهل يُفسَّرُ الاختلافُ بينهم بعدم انضباط قواعد الاجتهاد؟! . كلا .

إذن لا يعدُّ اختلاف الأئمة دليلا على عدم انضباطهم منهجيا . وإذا تأملنا الواقع وجدنا أن الأغلب هو الاتفاق بين أئمة الحديث القدامى في التصحيح والتضعيف رغم اختلاف مناطقهم وعصورهم . فلماذا إذن لا يستدل بذلك على وجود منهج دقيق وقواعد منضبطة ؟! .

ولا شك أن الاختلاف أمر طبيعي ، وأسبابه معروفة لدى الباحثين ؛ فمنها : وجود تساهل لدى بعض الأئمة في التصحيح ، كما قيل في الحاكم وقبله ابن حبان وقبله ابن خزيمة . ومنها : عدم استحضار بعضهم جميع الحيثيات ؛ فصحح حديثا حسب ما استحضره من الخلفية العلمية ، بينما ضعفه آخر في ضوء خلفيته العلمية . ومنها : أن الناقد كان يتفق مع الآخرين في تصحيح حديث أو تضعيفه ، لكن الخلل في طريقة حكاية ذلك عنهم بحيث يُوهِم أنهم اختلفوا في التصحيح أو التضعيف . ومنها : وجود خلل في فهم المصطلح المستخدم من قبل الناقد ؛ مثل مصطلحات الإمام الترمذي في سننه . ومنها أيضا كون الحديث من فضائل الأعمال التي قد يختلف فيها النقاد تصحيحاً وتضعيفاً . والجدير بالذكر أن الاختلاف بين أئمة النقد يكون أقل من اتفاقهم في التصحيح والتضعيف ، وإن اختلفوا في التعبير عن ذلك بالمصطلحات .

وخلاصة الكلام أن الاختلاف بين النقاد في التصحيح والتضعيف يكون أمرا طبيعياً ، وهو أقل بالمقارنة إلى حال اتفاقهم ، كما هو واضح في الصحيحين . فإذا وقع بينهم اختلاف في التصحيح والتضعيف فهذا لا يعني بالضرورة عدم انضباط قواعدهم ومعاييرهم في ذلك ، ولا عدم دقة منهجهم في النقد .

٣. هل ترون أن علوم الحديث قد استقرت وانتهى أمرها ، أو أنه يمكن إعادة النظر فيها تعديلا وتقويماً وإضافة وحذفاً ؟

نعم إن علوم الحديث مستقرة وقواعد النقد متكاملة ، ولا يستطيع - بل ولن يستطع- أحد أن يضيف عنصرا قد أغفل عنه المحدثون النقاد في النقد ؛ بل منهجهم كان متكاملا بجميع عناصره ،

وأن هذه القواعد تكمن وراء مصطلحات علوم الحديث . لكن الخلل يكون في تدريسها وفهم محتواها ، وتحليل مصطلحاتها . ومن المؤسف جدا أن دائرة الخلل في التدريس تظل تتوسع على الرغم من كثرة المتخصصين في الحديث ، ولا يسعون لتطوير المنهج في ضوء النتائج السلبية التي تظهر في الساحة ، ولا يعطون أية عناية لمعالجة هذه النتائج السلبية من خلال تدريس علوم الحديث .

٤. من الشائع والمتداول أن علماء الحديث ونقاده يركزون أثناء دراستهم ونقدهم للأحاديث تصحيحا وتضعيفا على الأسانيد وكل ما يتعلق بها ، وأن هناك من يقول : إن علماء الحديث لا يعتنون بدراسة المتون ونقدها ، فما مدى صحة هذه المقولة؟

هذا جهل ، أو زور وبهتان . لأن كتب النقاد - سواء أكانت في الصحاح أم في العلل أم في كتب الضعفاء والمجروحين أم في السنن- كلها تحتوي على نماذج واقعية لمدى عنايتهم بدراسة المتون في النقد ، وأنهم لا يبنون الحكم على ظواهر السند ، وأحوال رواته العامة ، كما نرى ذلك عند كثير من الباحثين المعاصرين .

نعم ، إن الإسناد له قيمة كبرى لدى النقاد ؛ إذ يشكل منطلقا صحيحا للنقد ، وعليه كانوا يعتمدون لمعرفة ضبط الراوي لما رواه ، وهل حدث به الراوي كما سمعه من شيخه أم لا؟ .

ولذلك قال عبد الله بن المبارك : الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء . لكن هذا لا يعني أنهم يركزون على ظواهر السند في التصحيح والتضعيف ، كلا .

وإذا تأملنا معاني المصطلحات المتعلقة بالعلة ؛ كالنكارة والشذوذ والمدرج والمقلوب والمصحف ، تأكدنا أن النقاد لا يعتمدون على ظاهر السند ، وأن ظهور هذه المصطلحات يكون بحد ذاته دليلا واضحا على أن النقاد لا يبنون الحكم تصحيحا أو تضعيفا على أحوال الرواة جرحا أو تعديلا ، بل يتحققون من مدى خُلُوِّ ما قاله الراوي - سندا ومتنا- من خطأ و وهم ، حتى وإن كان إماما مشهورا في الحديث ، ثم يصححونه أو يضعفونه بناء على نتائج ذلك .

فلو كان الأمر كما قيل : إنهم يبنون الحكم على ظاهر

الإسناد ، وإنهم يجعلون أحوال الرواة العامة مدارا لذلك ، ما ظهر شئ من هذه المصطلحات أبدا . فإن معنى ذلك أن كلّ حديث يرويه ثقة ،كان صحيحاً عندهم ، وأن كلّ حديث رواه الضعيف يكون ضعيفا أيضا ، وليس الأمر كذلك في الواقع . بل إن أحوال الرواة توثيقا وتضعيفاً وتصديقاً ، بل إن تحديد مراتبهم ودرجاتهم في الحفظ والإتقان ، كل ذلك من نتائج عناية النقاد بمعرفة خلو الحديث من شذوذ وعلة ، أي مخالفة وتفرد غريب ، أو قل من خطأ و وهم .

كما أن المصطلحات : المرسل الخفي ، والتدليس ، وتدليس التسوية تعد دليلا واضحا على أن النقاد لا يعتمدون في معرفة الاتصال على ظاهر السند ، ولا على مجرد المعاصرة بين الراوي وبين من حدث عنه ، ولا على مجرد اللقاء بينهما ، أو أنه سمع منه عموما ، بل يتحققون من مدى صحة سماع كلِّ راوٍ ما رواه من الحديث من صاحبه مباشرة ، حتى أسفر هذا الجهد المنهجي الفريد عن ظهور مصطلح التدليس والمرسل الخفي وتدليس التسوية ، بل إنهم تمكنوا من تحديد أسماء الرواة الذين يمارسون هذه الحيلة وقت الرواية و وصفوهم بذلك دون محاباة .

ولولا هذا الجهد والدقة والعناية ما ظهر شيء من هذه المصطلحات .

٥. هل يمكن لعلماء الحديث نقد الأحاديث وردها لأسباب تعود إلى المتن مع سلامة السند ظاهرا من أية علة أو أي سبب من أسباب تضعيف الأحاديث وردها؟ .

طبعا ، وبكل تأكيد . فكتب العلل وكتب الضعفاء وكتب الغرائب والأفراد تَغصُّ بنماذج ذلك . وفي الواقع أن النقاد لا يفرقون في النقد بين السند والمتن . وقد ردوا أحاديث كثيرة لأسباب تعود إلى خطأ أو خلل في المتون ، حتى وإن كان رواتها ثقاتاً ، وأن المتن لا ينفك عن السند . فما قاله الراوي سنداً ومتناً ، هو الذي يكون محل النظر والمقارنة لدى النقاد ، دون أن يفرقوا بينهما .

٦. ما مدى صحة ذلك الرأي المتداول في بعض المذاهب القائل بأن من طرق نقد متن الحديث عرضه على القرآن ، فإن وافق القرآن

أخذنا به وإن عارض القرآن رددناه ويستشهدون برواية "إِنَّهَا تَكُونُ بَعْدِي رُوَاةٌ يَرْوُونَ عَنِّي الْحَدِيثَ ، فَاعْرِضُوا حَدِيثَهُمْ عَلَى الْقُرْآنِ ، فَمَا وَافَقَ الْقُرْآنَ فَخُذُوا بِهِ ، وَمَا لَمْ يُوَافِقِ الْقُرْآنَ فَلا تَأْخُذُوا بِه" ؟ .

أولا : هذا الحديث لا يصح الاستدلال به لأنه باطل ، غريب منكر ، تفرد به جُبَارَةُ بْنُ مُغَلِّسٍ ، عن أَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ ، وجُبارة هذا راو ضعيف ، بل جعله ابن معين من الكذابين .

ثانيا : على فرض صحته فإن الحديث ليس فيه حجة ، لأنه يشير إلى نوع خاص من الرواة ، وهم الغرباء في مجال الحديث وروايته ، وليس جميع الرواة ، وكيف يكون المقصود به جميع الرواة ، وأوائلهم الصحابة كبارا وصغارا؟! ولذا تعيَّن أن هذا الحديث لا يشمل جميع الرواة ، وإنما فقط يشير إلى نوع خاص من الرواة ، وهم الغرباء ، وإلا فالحديث واضح البطلان في ضوء عرضه على الواقع .

ثالثا : إن منهج النقاد متكامل العناصر ، ومن أدق هذه العناصر عرض الحديث على العقل والقرآن والإجماع ، لكن ذلك العرض يكون منضبطاً وفق مقتضى طبيعة الرواية .

ولذا ، فإن كل حديث صحيح صححه النقاد ، لا ينبغي أن يُعرضَ على القرآن والعقل لمعرفة صحته أو ضعفه من جديد ؛ فإن في الحديث ما يتعلق بالغيبيات والمعجزات ، فإذا ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم فعلينا تصديقها ، وإمرارها على ظاهرها ، وإن لم يُعجب ذلك العقولَ المعاصرة .

وأما الحديث الذي فيه ريبة لكونه غريباً تفرد به راو ، حتى وإن كان إماما ، دون أن يعرفه أحد من زملائه ، فهذا بحد ذاته يُؤشِّر إلى وجود خلل في الرواية ، ومع ذلك فإذا خالف هذا الحديث الغريب العقلَ أو الإجماعَ أو القرآنَ زاد النقاد يقينا ببطلانه ، بل قد يتهمون راويه بالكذب إن كان هو غريبا غير معروف ، ويكون ذلك كله في ضوء ما يحيط به من قرائن .

٧. هناك من يقرر بأن مذهب محاكمة الأحاديث للقرآن عمل به الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومما يستشهدون له بذلك ما

قامت به السيدة عائشة من اعتراضها على عبد الله بن عمر في روايته لحديث "إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه" ، ورده لها بأنها معارض بقوله تعالى : {ولا تزر وازرة وزر أخرى} ، فهل ترون صحة ذلك المذهب وتوافقون عليه ؟

وهذا سوء فهم ، بل تحريف للحقائق . ولو تأملت - أخي الكريم - كلام عائشة أم المؤمنين وغيرها من الصحابه في هذا المجال تبين جلياً بطلان تلك المقولة . ونذكر هنا على سبيل المثال ما ورد في شرح السنة للإمام البغوي من استدراك عائشة أم المؤمنين على عمر ، وهذا نصه : (. . .فَلَمَّا أُصِيبَ عُمَرُ ، سَمِعْتُ صُهَيْبًا يَبْكِي ، وَيَقُولُ : وَاأَخَيَّاهُ وَاصَاحِبَاهُ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا صُهَيْبُ أَتَبْكِي عَلَيَّ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ، قَالَ : فَلَمَّا مَاتَ عُمَرُ ، ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ ، فَقَالَتْ : رَحِمَ اللَّهُ عُمَرَ ، لا وَاللَّهِ مَا حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الْمُؤْمِنَ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ يَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : حَسْبُكُمُ الْقُرْآنُ لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ عِنْدَ ذَلِكَ : وَاللَّهُ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ : فَوَاللَّهِ مَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ مِنْ شَيْءٍ . هَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ .

والذي يدل عليه هذا النص هو : أن عائشة لم ترفض الحديث لمخالفته القرآن الكريم ، وإنما رفضت فهم عمر من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قالت : لا وَاللَّهِ ، مَا حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الْمُؤْمِنَ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ يَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ، ثم إن عائشة رضي الله عنها بَرْهَنَت على خطأ الفهم الذي نسب إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، بقول الله تعالى : لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

وكذلك الأمر في جميع ما ورد عن الصحابة من استدراك بعضهم على بعض ، وليس فيه دليل على أن أسلوبهم في التعامل مع الأحاديث هو عرضها على القرآن ؛ فما وافق منها يقبل ، وما خالفه فهو

مرفوض ، بل يكون هذا الأسلوب بعينه مرفوضا جملة وتفصيلا في ضوء ما تواتر عنهم عمليا فيما يخص الحديث النبوي والعمل به .

٨. كيف نتعامل مع حديث خبر الآحاد إذا تعارض مع صريح القرآن على وجه يتعذر معه الجمع بينهما ، أو التوفيق بين دلالتيهما؟ .

للأسف الشديد قد أسيئ في التعامل مع خبر الآحاد ، حين أطلقت عليه تلك القاعدة . فإن الحديث الصحيح الثابت لا يعارضه القرآن أبدا . هذا ، ولم يشترط أحد من أهل السنة والجماعة أن يكون الحديث متواتراً ليكون مقبولا للعمل . ومن طبيعة الحديث النبوي أن تكون روايته خبر آحاد لكونه من علم الخواص ، اللهم إلا إذا كان الحديث من الأذكار والأدعية وغيرها مما يتعبد بلفظه ؛ فتكون له صفة التواتر العملي أو المعنوي .

ومن المعلوم أن من خبر الآحاد ما هو متفق على صحته ومجمع على العمل به جيلا بعد جيل ، بحيث يضفي ذلك على الحديث صفة التواتر العملي أو المعنوي ، حتى وإن كان خبر آحاد من حيث الرواية ؛ مثل ألفاظ الأذان ، فهو من خبر الآحاد رواية ، لكن له صفة التواتر عملا . ومن الآحاد ما اختلَف الأئمة في صحته ، ومن الآحاد ما يتفرد به راو ، ومع ذلك قد يكون صحيحا وقد لا يكون صحيحا .

وفي ضوء هذا الواقع إنه لا بد من التفريق بين هذه الأنواع من الأحاديث عندما تطبق قاعدة : خبر آحاد لا يفيد إلا الظن ، وأنه لا بد من عرضه على القرآن والعقل ، فإن خالفه رُدَّ ، وإن وافقه قُبِلَ . وذلك لأن من طبيعة الحديث أن يُفسِّر القرآنَ ويُبيِّن مرادَه تقييداً وتخصيصاً وتعميماً ونسخا وغير ذلك ، ومن طبيعة هذا النوع من الحديث أن لا يكون موافقا لظاهر القرآن ، فيكون مردودا عند هؤلاء ، بدل أن يكون مفسرا . بل يؤدي هذا الموقف الغريب إلى تجريد السنة عن وظيفتها في تفسير القران وبيانه .

٩. يقول الخطيب البغدادي (الكفاية في الرواية ٤٣٢/١) : "ولا يُقبل خبر الواحد في منافاة حكم العقل ، وحكم القرآن الثابت المحكم ، والسنة المعلومة والفعل الجاري مجرى السنة ، وكل دليل مقطوع به"؟ أي عقل قصده البغدادي في قوله (حكم

العقل)؟ وهل من شرح موجز لكلامه السابق؟ .

إن الخطيب البغدادي لم يقصد به إطلاق هذه القاعدة على كل حديث صحيح معمول به جيلا بعد جيل بحجة أنه خبر آحاد ، والدليل على ذلك موقفه العملي في التعامل مع الأحاديث الصحيحة التي لم تكن متواترة ، ألا وهو تصحيح ما صححه الأئمة والعمل به ، ورفض ما رفضوه ، وإنما يريد الخطيب به أن ما تفرد به راو من حديث غريب، فإذا تنافى مع حكم العقل ، أو حكم القرآن أو السنة المعلومة ، والفعل الجاري مجرى السنة ، وكل دليل مقطوع به ، فإنه لا يكون إلا باطلا . ولا يريد الخطيب البغدادي إطلاق هذه القاعدة على ما ورد من الأحاديث الصحيحة بحجة أنها خبر آحاد ، بل إن معظم الأحاديث التي صححها النقاد لا تكون إلا خبر آحاد يندرج ضمن السنة المعلومة أو المعمولة بها . ولم يكن قول الخطيب جديدا مفاجئا ، بل هو بعينه كان مطبقا في عملية النقد .

١٠. نود منكم تعريفنا بأهم وجوه الاختلاف بين منهج المتقدمين والمتأخرين في دراسة الأحاديث ونقدها؟ .

أهم الفوارق بينهم هو أن المتقدمين إنما يصححون الحديث بناء على مدى سلامته من شذوذ وعلة أو قل : من غرابة ومخالفة ، حتى وإن كان راويه إماما . وأما المتأخرون فإنهم يصححون الأسانيد ويضعفونها بناء على أحوال الرواة وظواهر المعاصرة .

أما كلمة (المتقدمين والمتأخرين) فكلمة اصطلاحية ينبغي تفسيرها حسب منهج من استخدمها ، وليس على الدلالة اللغوية . ولذا ، أقول : إن المراد بكلمة (المتقدمين) نقاد الحديث الأوائل ومن سلك مسلكهم في النقد ، وإن كان متأخر الزمن ، والمقصود بالمتأخرين هم الفقهاء والأصوليون ومن تبعهم في المنهج وإن كان عصره قديما . والله أعلى وأعلم .

أعلام التاريخ الإسلامي

الإمام الشاطبي وجهوده في العلوم الشرعية والعربية

الدكتور/ محمد يونس
الأستاذ المشارك بالقسم العربي ، جامعة شيتاغونغ ، بنغلاديش

ملخص المقالة :

كان الإمام الشاطبي(ت ٧٩٠هـ) من أكابر العلماء في زمانه ، محدثاً لغوياً ، وله مكانة علمية في تاريخ المسلمين ، وقد ساهم في الحركة الفكرية في بلاد الأندلس ، تلقى العلوم على يد شيوخ عصره ، منهم الإلبيري والسبتي والتلمساني وغيرهم ، كما تتلمذ على يديه جماعة كانوا غرة في جبين الحضارة الإسلامية ، كأبي يحيى بن عاصم، وأبي جعفر القصّار ، وأبي العباس القباب وغيرهم ، اتفق العلماء على سعة اطلاعه وغزارة علمه في العلوم الشرعية والعربية ، وكان محبا للسنة ، عاملا على نصرة دينه ، هاجم البدع ورد عليها بالحجة والبرهان ، له مؤلفات عديدة في العلوم الشرعية أهمها كتاب" الموافقات" شرح فيه أصول الفقه الإسلامي والاجتهاد ، وبنى مذهبه على أن هدف الشريعة رفع الحرج عن المسلمين ، وأجاز الأخذ بالاستحسان والمصالح المرسلة. وله في العلوم العربية مؤلفات عديدة أهمها " المقاصد الشافية " وهو أكبر شرح لألفية ابن مالك ، رد فيه على ابن مالك في كثير من مسائل اللغة ، وبين وجهة نظره في بعض المسائل النحوية والصرفية ، وبنى مذهبه في هذا الشرح على الميل إلى السهولة والبساطة، واتباع الرأي الصواب ، والاستشهاد بالقراءات القرآنية ، والأحاديث التي اعتنى ناقلوها بلفظها وخاصة الأحاديث القصار .

تقديم :

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه المبين :"يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات "[١] ، و الصلاة والسّلام على خير الأنام ، القائل في حديثه الشريف : " العلماء ورثة الأنبياء ..."[٢] وعلى آله و أصحابه الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً .

فقد قيّض الله - تبارك وتعالى - من هذه الأمة رجالا صنفوا في شتى العلوم و المعارف الإسلامية؛ لخدمة هذا الدين الحنيف ، من هؤلاء : الإمام العلامة أبو إسحاق الشاطبي صاحب المصنفات الجمة في شتى العلوم و الفنون ، فقد كانت حياته بركة على الإسلام والمسلمين ، حيث ساهم بدوره في إحياء

علوم اللغة في بلاد الأندلس وغيرها ، ووضع العديد من المصنفات في الفقه الإسلامي و أصوله ، و رد على أهل البدع في زمانه بالحجة الدامغة و البراهين الساطعة ، كما كان له دور بارز في الأدب العربي و المنطق و غيرهما من المعارف والعلوم ، وقد تتلمذ على يده كثير من فحول العلم الذين أثروا المكتبة الإسلامية ، و انتشر علمهم فعم بلاد الإسلام قاطبة ، وهذا المقال مساهمة متواضعة مني لإبراز بعض جوانب شخصية الإمام الشاطبي ومساهماته في إحياء التراث الإسلامي ، واخترته تحت عنوان "الإمام أبو إسحاق الشاطبي وجهوده في العلوم الشرعية والعربية" والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

اسمه ومولده ونسبه :

هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي ، وكنيته : أبو إسحاق[3] ، ولقبه : الشاطبي[4] . نسبة إلى (شاطبة) التي تقع على الساحل الشمالي الشرقي في الأندلس ، وقد ظهر منها العلماء الكثيرون ، وذكر المؤرخون أنه عاش في غرناطة دارساً ومدرساً ، وربما اكتسب هذا اللقب من بعض علماء شاطبة الذين اتصل بهم في غرناطة ، وبالبحث الدقيق في كتب التراجم والطبقات لم أجد أحداً من المؤرخين يثبت تاريخ ومكان مولده ، وهو ينتمي إلى قبائل لخم التي كانت تعيش على حدود الروم في الجاهلية ، أو إلى اللخميين الذين كانوا ملوك الحيرة في العصر الجاهلي مما يدل على أنه عربي الأصل[5] .

وقد وهم محققو كتب (خزانة الأدب) وشرح أبيات (مغني اللبيب) فذكروا أن الشاطبي شارح ألفية ابن مالك هو أبوالقاسم الشاطبي المتوفى سنة ٥٩٠هـ ،وقد يكون سبب وهمهم متابعتهم لغيرهم فيه ، فقد ذكر بروكلمان في معرض تعداده لشراح الألفية: (٤٢ – شرح للشا طبي ، جامع القرويين بفسطاط القاهرة ، وفيه أن المؤلف هو الشاطبي أحد القراء المتوفى سنة ٥٩٠هـ)[6] ، ويكفي لرد هذا الوهم وإبطاله أن نذكر أن الإمام أبا إسحاق الشاطبي توفي سنة ٧٩٠هـ ، والشاطبي سيد القراء توفي سنة ٥٩٠هـ فبينهما ما يزيد عن مائتي سنة ، ونحن نقر بأنهما كانا نحويين مقرئين ، لكن النحو بأبي إسحاق الشاطبي ألصق ، والقراءات قد اشتهر بها سيد القراء أبوالقاسم الشاطبي[7] .

نشأته ووفاته :

نشأ في غرناطة في القرن الثامن الهجري ، الموافق الرابع عشر الميلادي ، وتوفي فيها يوم الثلاثاء في شهرشعبان سنة تسعين وسبعمائة هجرية [8] ، بعد أن نهل من مناهل العلم ، وذاع صيته دارساً ومدرساً في الوقت الذي بدأ فيه الضعف يدب في مفاصل هذه الدولة مما يؤذن بزوالها، وقد كان ذلك بعد وفاة

الإمام بقرن واحد ، حيث استولى الأسبان على غرناطة ، وخرج العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون ، وكان لذلك أكبر الأثر على الشاطبي[9] .

مكانته العلمية :

كان الشاطبي من أكابر العلماء ، ومن أفراد زمانه ، وكان عالماً بالمعقول والمنقول مفسراً ، محدثاً ، لغوياً بيانياً ، له الإمامة العظمى في الفنون فقهاً وعربية ، وله استنباطات جليلة ، ودقائق بديعة ، وفوائد لطيفة وأبحاث قيّمة[10] ، ومؤلفاته العلمية خير دليل على ذلك .

الحركة الفكرية في القرن الذي عاش فيه الإمام الشاطبي :

كانت الحركة الفكرية نشيطة في عصر الإمام الشاطبي؛ حيث كانت الأندلس محط أنظار طلاب العلم من كل مكان- وخاصة البلاد الأوربية- وهذا من العوامل التي عملت على تفوق الإمام الشاطبي ونبوغه العلمي ، ولاسيما أن علماء هذا القرن كانوا يسيرون على نهج علماء القرن السابع كابن معط (ت٦٢٨هـ) ، وابن الحاجب (ت٦٤٦هـ) وابن يعيش (ت٦٤٣هـ) والسخاوي (ت٦٤٣هـ) وابن مالك (ت٦٧٢هـ) وابنه بدرالدين (ت٦٨٦هـ) وغيرهم .

فلما جاء القرن الثامن الهجري كان الإمام الشاطبي أحد أولئك العلماء الذين ظهروا في العلوم الدينية والعربية ، وذاع صيتهم في ربوع الدولة الاسلامية شرقاً وغرباً وساهموا في النهضة الفكرية في بلاد الأندلس بالرغم من كثرة الحروب ، فكان لا يشغلهم شاغل عن طلب العلم وتحصيله[11] .

أساتذته :

كانت غرناطة عاصمة بني الأحمر في مستهل القرن الثامن الهجري ، وملتقى العلماء والأدباء والشعراء[12]؛ مما هيأ للإمام الشاطبي أن يتلقى العلم على يد صفوة مختارة من علماء زمانه ، منهم:

١ – أبو عبد الله الفخار الإلبيري (ت ٧٥٤ هـ)
٢ – القاضي الحسنى أبو القاسم السبتي (٦٩٧ – ٧٦٠هـ)
٣ – الشريف أبو عبد الله التلمساني (٧١٠ – ٧٧١ هـ)
٤ – الخطيب بن مرزوق (٧١٠هـ – ٧٨١ هـ)
٥ – الفشْتالي (ت سنة ٧٧٧ وقيل ٧٧٩هـ)
٦ – منصور بن على بن عبد الله الزواوي (٧١٠ – ٧٧٠ هـ)
٧ – أبو سعيد بن لب (٧٠١ – ٧٨٢ هـ)
٨ – أبو عبد الله المقري (ت ٧٥٩ هـ)
٩ – أبو جعفر الشقوري (ت ٧٥٦ هـ)
١٠ – أبو عبد الله البلنسي (ت ٧٨٢ هـ)

١١ - أبو عبد الله اللوشي (ت ٧٥٢)

تلاميذه :

أخذ عن الإمام الشاطبي جماعة كانوا غرة في جبين الدهر أشهرهم :

١ – أبو يحيى بن عاصم (ت ٨١٣ هـ)
٢ – أبو بكر بن عاصم (٧٣٠ – ٨٢٩ هـ)
٣ – أبو عبد الله البياني (ت ٨٧٦ هـ)
٤ – أبو جعفر القصار (ت ٨٩٧هـ)
٥ – الحفيد بن مرزوق (٧٦٦ – ٨٤٢ هـ)
٦ – أبو العباس القباب (ت ٧٨٠ هـ)
٧ - أبو عبد الله الحفار (ت٧٧٤هـ)

آثاره العلمية و الأدبية :

اتفق العلماء على سعة اطلاع الإمام الشاطبي وطول باعه وغزارة علمه في العربية، وكافة العلوم العقلية والنقلية ، وقد استفاد منه الكثيرون ، وترك لنا تراثاً علمياً قيِّماً ، ألف في العربية : شرحه على ألفية ابن مالك في الصرف وأصول النحو ، ورسالة في الأدب ، والاتفاق في علم الاشتقاق ، والإفادات والإنشادات ، و له في أصول الفقه : الموافقات ، والمجالس ، والاعتصام ، وفتاوى شرعية ، وله أشعار كثيرة ، وكان - رحمه الله - محبا للسنة ، عاملا على نصرة هذا الدين؛ لأنه تتبع مسائل البدع والابتداع ، ورد عليها بالحجة والبرهان ، فأفاد المسلمين في دينهم ودنياهم ، وكان – رحمه الله – سلاحا مسلطا على الطاغين على الإسلام وأهل البدع في زمانه .

ومن أهم مؤلفاته في العلوم الشرعية :

١- **الموافقات (عنوان التعريف بأسرار التكليف) :**

كتاب هام "في أصول الفقه" في أربعة مجلدات في غاية الإجادة ، يدل على إمامته ومنزلته ، يحتوي على خمسة أقسام :

الأول : المقومات : وهي ثلاث عشرة مقومة في أصول الفقه والأدلة القطعية والمستعملة ومسائل أصول الفقه العادية ، والاشتغال بالمباحث النظرية ، ومراتب العلوم الثلاثة: التقليدي، الاستدلالي، التحقيقي . وأقسام العلم الثلاثة .

الثاني : الأحكام : وهي نوعان : تكليفية ، ووضعية ، والتكليفية فيها ثلاث عشرة مسألة . والوضعية فيها خمسة أنواع :

١ – الأسباب والشروط . ٢ – الموانع . ٣– الصحة والبطلان . ٤ – العزائم . ٥ – الرخص .

الثالث : المقاصد : وهي قسمان: أولاً عامة : وفيها أربع عشرة مسألة تبحث في أنه من الخطأ اعتبار جزئيات الشريعة دون كلياتها والعكس ، وفي الظن إذا خالف قطعياً ، والأدلة التي لا تنافي قضايا العقول ذهنياً أو خارجياً

وضرورتها ، والأدلة المكية والمدنية وأقسام الدليل والمجتهدين وتعيين المناط .
١ – المحكم والمتشابه . ٢ – الأوامر والنواهي . ٣ – المباح . ٤ – العموم والخصوص . ٥– البيان والإجمال .
الرابع : الأدلة ، وأخذها من الكتاب والسنة والإجماع .
الخامس : الاجتهاد ، وفيه أربع عشْرة مسألة تبحث في أنواع الاجتهاد ، والفتوى ، والتعارض ، والترجيح وأحكامه ، والسؤال والجواب[١٣] .

٢ - **كتاب المجالس**[١٤] :

كتاب هام شرح فيه "البيوع" من صحيح البخاري[١٥] .
قال عنه الحفيد بن مرزوق:"فيه من الفوائد والتحقيقات ما لا يعلمه إلا الله"[١٦] .

٣ - **الفتاوى المجموعة:**[١٧]

وهي عبارة عن مجموعة من الفتاوى ، وقد أفتى في أمور حدثت في زمانه

٤ - **الاعتصام :**[١٨]

كتاب مطبوع في أصول الفقه. وهو في ثلاثة مجلدات فيه عشرة أبواب :
الأول : في تعريف البدع ، وبيان معناها ، وفيه فصل يبدأ بقوله : " وفي الحسد معنى آخر"
الثاني : في ذم البدع وسوء منقلب أهلها ، وفيه سبعة فصول ، استشهد بأحاديث الرسول- صلى الله عليه وسلم - وبحث في أن ذم البدع والمحدثات عام .
الثالث : في الكلام عن شبه البدع ، ومن جعل البدعة حسنة وسيئة .
الرابع : في مأخذ أهل البدع في الاستدلال .
وفيه عشرة فصول : تبحث في هذا الموضوع ، وبحث رد أهل البدع للأحاديث غير الموافقة لأغراضهم ، وبحث تخرصهم في القرآن والسنة ، وانحرافهم عن الأصول الواضحة .
الخامس : في البدع الحقيقية والإضافية .
السادس : وفيه مقدمة ومسائل في أن البدعة ليست على حد سواء .
السابع : في الابتداع هل يختص بالعبادات ؟ وهل تدخل فيها العادات أم لا ؟
الثامن : في الرد على أهل البدع .
التاسع : في السبب الذي لأجله افترقت فرق المبتدعة عن جماعة المسلمين
العاشر : في الصراط المستقيم الذي انحرفت عنه سبل الابتداع فضلت عن الهدى بعد البيان .

وبالنظر في مؤلفاته الشرعية نجد أنه بنى مذهبه على المبادئ الآتية :

١- **حقوق الفرد ملك لله وحده :**

يعتبر الإمام الشاطبي أن الفرد نفسه وكل ما يعتبر له - عادة - من حقوق ملك لله وحده ومنحة لعبيده ، ولا يمنح الله ما يمنح من حقوق الأفراد إلا

لغرض حكيم ، وهو تحقيقه الخير للفرد والمجتمع معاً ، فمن المسلمات أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً ، وأن هذا ثابت في جميع الأحكام بالاستقراء ، ويترتب على ذلك وجوب أن يكون الإنسان في عمله واستعماله لحقوقه متفقا مع قصد الله من التشريع ، وإلا كان عمله باطلا لمناقضته للشريعة ومقاصدها[١٩] .

وهذا يخالف القانون الوضعي الآن الذي يعتبر حقوق الفرد حقوقا طبيعية له ، فهو يملكها ويتصرف فيها حسب ما يرى. ومن ثم لاحرج عليه إن أساء استعمالها[٢٠] .

٢- درء المفاسد مقدم على جلب المنافع :

ذكر الشاطبي أن المرء قد يمنع شرعاً من عمل هو في الأصل مباح له ، وفيه - مصلحة له - إذا ترتب عليه ضررلغيره ، أو إذا ترتب عليه ضررعام ؛لأنه لاضرر ولا ضرار في الإسلام ؛ ولأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة[٢١] .

فالشارع نهى عن بعض التصرفات التي تضر بالغير- وإن كان فيها منفعة لغيرها - ، مثل تحريم الربا ، وتحريم الخطبة على الخطبة ، ومثل بيع الطير في الهواء[٢٢] .

٣- من أسس التشريع عدم الحرج ورفع المشقة :

ولرفع الحرج والمشقة مظاهر كثيرة منها ما هو في العبادات ، ومنها ما هو في المعاملات ، ومنها ماهو في العقوبات: ففي العبادات عدم كثرة التكاليف التي جاءت بالقرآن خاصة بها ، حتى صار من اليسير القيام بها دون مشقة ، مثل قصر الصلاة في السفر وفطر المريض والمسافر ، وتناول الخمر عند الضرورة ، والحج لم يفرض إلامرة واحدة في العمرعلى من استطاع ، والزكاة لم تفرض إلا على القادر ، وجعلها العشر أو نصفه ، وفي المعاملات تكفي رغبة المتعاقدين فقط ، وكثير من أحكامها تبنى على العرف الصحيح شرعاً ، وفي العقوبات تدرء الحدود بالشبهات ، ويسقط الحد عن السارق الذي لا يجد قوت وقته[٢٣] .

٤- التشريع الإسلامي يستهدف مصلحة الناس كافة :

لافرق بين أجناسهم وأديانهم ، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي :"إنا وجدنا (بالاستقراء) الشارع قاصدا لمصالح العباد ، فترى الشيئ الواحد يمنع في حال لاتكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز كالدرهم بالدرهم إلى أجل يمتنع فيه المبايعة ، ويجوز فيه القرض ، وبيع الرطب باليابس كالتمر مثلا يمتنع حيث يكون مجرد غرر و ربا من غير مصلحة ، ويجوز إذاكان فيه مصلحة[٢٤] .

٥- الأخذ بالاستحسان :

اشتهر الإمام الشاطبي بالأخذ بالاستحسان ، وقال عنه :"الاستحسان

هو العدول في مسألة عن مثل ماحكم به في نظائرها إلى خلافه لوجه هو أقوى " والوجه الأقوى الذي يقصده الشاطبي هو الدليل من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو العرف الصحيح ، وهذا ما يريده أكثر الفقهاء ،فهو ليس قولا بالرأي ، بل هو قول لدليل راجح لدى القائل به [٢٥] .

٦- المصالح المرسلة :

أخذ الإمام الشاطبي بهذا المصدر في التشريع حتى لا تتعطل مصالح الأمة ، ويراد بالمصالح المرسلة : كل مصلحة غير مقيدة بنص من الشارع يدعو إلى اعتبارها أوعدم اعتبارها ، وفي اعتبارها مع هذا جلب نفع أودفع ضرر ، واشتُرط لاعتبار المصالح المرسلة مصدرا من مصادر التشريع شروط ثلاثة :

١- أن تكون في المعاملات لا العبادات
٢- ألا تتعارض مع مقاصد الشريعة
٣- أن تكون مصلحة ضرورية للمجتمع[٢٦] .

ومن أهم مؤلفاته في العلوم العربية :

١- كتاب الإفادات والإنشادات في الأدب :[٢٧]

كتاب صغير فيه طرف وملح ، وقد أثنى عليه في مقدمة شرحه على الألفية, قال ابن فرحون : " وهو في كراسين غاية في الطرف والتحف والملح والأدبيات والإنشادات كتبه في الأدب " [٢٨] .

٢- كتاب أصول النحو :[٢٩]

كتاب في النحو ذكره ابن فرحون[٣٠] - في " الديباج " - وغيره من المؤرخين .

٣- رسالة في الأدب :[٣١]

ذكر المؤرخون هذه الرسالة ضمن مؤلفاته ، في غاية الإبداع والدقة ، وأنها من مكنون ألفاظه ، وجميل عباراته .

٤ - الاتفاق في علم الاشتقاق[٣٢] :

ذكره المؤرخون كالتنبكتي (ت ٩٥٥هـ) في "نيل الابتهاج" وغيره ، وقال:" إنه ألف في زمانه" [٣٣] .

٥- المقاصد الشافية :[٣٤]

ألّف الإمام أبو إسحاق الشاطبي شرحه على ألفية الإمام ابن مالك باسم " المقاصد الشافية" في النحو و الصرف في ستة أجزاء ، وهو كتاب ضخم رد فيه على ابن مالك في مواطن كثيرة ، وبين وجهة نظر العلماء في المسائل النحوية والقواعد ، والضرورة ، والقياس ، والسماع ، وأثرت هذه الأمور في أسلوب الإمام الشاطبي فكانت أساسا لبيان خصائص مذهبه في النحو . وقد كان مخطوطاً منذ فترة قريبه ، وطبع حديثا في المملكة العربية السعودية [٣٥] و يتكون الشرح من ستة أجزاء :

الجزء الأول : ويشمل مقدمة شرح الشاطبي والكلام وما يتألف منه ، والمعرب والمبني ، والنكرة والمعرفة ، الضمير ، العلم ، الإشارة ، الموصول ، المعرف بـ (ال) ، والابتداء .

الجزء الثاني : ويشمل بقية الابتداء ، وكان وأخواتها ، و (ما) و (لا) و (لات) و (إن) المشبهات بـ (ليس) ، وأفعال المقاربة ، و(إن) وأخواتها ، و(لا) النافية للجنس ، و(ظن) وأخواتها ، و(أعلم وأرى) ، والفاعل ، ونائب الفاعل ، والاشتغال ، والتعدي، واللزوم ، والتنازع ، والمفاعيل ، والاستثناء .

الجزء الثالث : ويشمل : الحال ، والتمييز ، وحروف الجر ، والإضافة ، وإعمال المصدر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، والتعجب ، وأبنية المصادر .

الجزء الرابع : ويشمل : نعم وبئس ، وأفعل التفضيل ، والنعت ، والتوكيد ، والعطف، والبدل ، والنداء ، والاستغاثة ، والندبة ، والترخيم ، والاختصاص ، والتحذير والإغراء ، وأسماء الأفعال ، والأصوات ، ونوني التوكيد ، وما لا ينصرف ، وإعراب الفعل .

الجزء الخامس : ويشمل : عوامل الجزم ، وفصل : لو وأما ، لولا ، لوما ، والعدد، وكم وكأين ، وكذا ، والحكاية ، والتأنيث ، والمقصور ، والممدود ، والتثنية ، وجمع التصحيح ، وجمع التكسير والتصغير ، والنسب .

الجزء السادس : ويشمل : الوقف ، والإمالة ، والتصريف ، وهمزة الوصل ، والإبدال، ولام فعلى ، والساكن ، وحروف اللين ، والإعلال ، والحذف ، والإدغام .

منهجه في شرح العلوم العربية :

شرح الإمام الشاطبي العلوم العربية- وخاصة الألفية - شرحاً وافياً ، وبالاطلاع الدقيق على شرحه للعلوم العربية يمكن إجمال مذهبه في الأمور الآتية :

١ - استقصاء الحقائق والقواعد النحوية:

كان الشاطبي إماماً في النحو مجتهداً لم يتعصب لمذهب من المذاهب ، وإنما يعرض الآراء ويمحصها ، وينظر في أسانيدها ثم يختار الرأي الذي تطمئن إليه نفسه ، ويرجح دليله ، وكان هذا شأن الأندلسيين عامة . فمال إلى استقصاء الحقائق العلمية على أساس قواعد سليمة ، ويعتمد في بناء القواعد على آراء الخليل (ت ١٧٠هـ) وسيبويه (ت ١٨٠هـ) ، ويرسي دعائمها على ما قاله الزمخشري (ت٥٣٨ هـ) في (المفصل) ، وابن السراج (ت ٣١٦هـ)

في (أصول النحو) ، والزجاجي (ت ٣٣٧هـ) في (الجمل) ، وابن عصفور (ت٦٦٩هـ) في (المقرب) .

وبين رأي الفارسي (ت٣٧٧هـ) وابن جني (ت٣٩٢هـ) وقارنها برأي ابن مالك في (التسهيل) ومثل بآية وحديث وبيت شعر ومثل من أمثال العرب ، وكثيراً ما كان يوضح القاعدة بمثال من عنده [٣٦] .

٢- **الميل إلى السهولة والوضوح :**

مال الإمام الشاطبي إلى السهولة والوضوح في شرحه الواسع للألفية ، فهو يعرض المسائل النحوية بأسلوب واضح ليس فيه تعقيد ولا غموض [٣٧] .

٣- **اتباع الرأي الصواب في شرحه:**

ومن أهم ما يتميز به الإمام الشاطبي شجاعته وظهور شخصيته ، فيعرض رأي البصريين والكوفيين والبغداديين والعلماء في الشام ومصر والمغرب القدامي والمعاصرين له دون تعصب أو انحياز ، ويعرض آرائهم في أمانة وإخلاص ، ويرجح أو يتخذ لنفسه موقفاً خاصاً ، وإن كان - غالبا - ما يسير على طريقة الناظم وابنه في ترجيح رأي البصريين ، فكان يقبل من غيرهم إذا حالفهم الصواب ، وينقد مواقف بعض النحاة نقداً بناءً ، أو يترحم عليهم بأدب وحسن تصرف ، ولا يتعرض لأحد منهم بأذى إذا جانبه الصواب [٣٨]

٤- **النظر في المسائل النحوية باستقصاء وإفاضة وبسط:**

فهو إن تعرض - مثلاً - للإعراب والبناء والمعرفة والنكرة والابتداء وغيرها بأكثر من وجه لكل مسألة - فإنه يذكر لغات العرب في (سوف) ، و(حَيْهَلَ) ، و(لعل) ، وأداة التعريف ، و(قط) ، و (لدن) ، و (هيهات) وغيرها [٣٩] .

٥ - **انفراده بآراء أخذها عنه كبار النحاة :**

كالأشموني (ت٩٠٠هـ) والصبان (ت١٢٠٦هـ) والسيوطي (ت٩١١هـ) في الهمع ، والبغدادي (ت٨٠٢هـ) والمكودي (ت٨٠٧هـ) والمكناسي (ت٨٨٠هـ) في شرح الألفية ، ففي معرض كلامهم يتبين للقارئ شخصية الإمام الشاطبي وآراؤه ، ونظراته الصادقة .

الاستشهاد بالقرآن و وجوه القراءات عند الإمام الشاطبي :

لما كان الإمام الشاطبي من أهل القرآن ، ومن علماء القراءات فقد جعل الاستشهاد بالقرآن وآياته في الدرجة الأولى ، حيث استشهد بقراءات القراء البصريين والكوفيين ، واحتج بالقراءات الشاذة ، وبين وجهة نظر العلماء فيها ، وأبدى رأيه ، وذكر صاحب القراءة ، وإذا وجد أكثر من وجه

في القراءة والاستشهاد بها أظهره وخرجه ، ولاعجب في ذلك فهو من علماء أصول اللغة [40] . فأجاز عطف الفعل على الاسم ، والاسم على الفعل ، إذا كان الاسم يشبه الفعل ، مستدلا بالقراءة الأولى لعاصم وحمزة والكسائي[41] (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا) ، وفي ذلك يقول : " . . . عطف الفعل على الاسم الذي يشبه الفعل ، وعطف الاسم المذكور على الفعل سائغ ؛ لسهولة الخطب فيه إذ كان الاسم من حيث أشبه الفعل كأنه فعل [42] فكأنك لم تعطف إلا فعلا على فعل ، فلم يبق فيه ما تقدم من المحظور ، فتقول : (أعجبني الضاربُ زيدًا وأكرم عمرًا)، (جاءني رجل ضاربٌ زيدًا ويكرم أخاه) .

فمن الأول قوله تعالى : (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا)[43] .

ومن الثاني قوله تعالى : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) .[44] "[45] .

موقف الإمام الشاطبي من الاستشهاد بالحديث :

كان الإمام الشاطبي يحتج بالأحاديث التي اعتنِيَ بنقل ألفاظها وخاصة الأحاديث القصيرة ، قال الشاطبي- نقلاً عنه - في مقدمة (خزانة الأدب) : " لم نجد أحداً من النحويين استشهد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم ، الذين يبولون على أعقابهم ، وأشعارهم التي فيها الفحش والخنى ، ويتركون الأحاديث الصحيحة ، لأنها تنقل بالمعنى ، وتختلف رواياتها وألفاظها ، بخلاف كلام العرب وشعرهم ، فإن رواته اعتنوا بألفاظها ، لما ينبني عليه من النحو ، ولو وقفت على اجتهادهم قضيت منه العجب ، وكذا القرآن ووجوه القراءات .

وأما الحديث فعلى قسمين: قسم يعتني ناقله بمعناه دون لفظه ، فهذا لم يقع به استشهاد أهل اللسان . وقسم عرف أعتناء ناقله بلفظه لمقصود خاص؛ كالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحته صلى الله عليه وسلم ، ككتابه لهمدان ، وكتابه لوائل بن حجر، والأمثال النبوية؛ فهذا يصح الاستشهاد به في العربية " [46]

والدليل على ذلك أن الإمام الشاطبي أجاز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالجار والمجرور في سعة الكلام مستدلا بقوله صلى الله عليه وسلم : " هل أنتم تاركو لي صاحبي " [47] ف (تاركو) جمع تارك اسم فاعل من (ترك) مضاف إلى مفعوله ، وهو (صاحبي) ، بدليل حذف النون ، و(لي) جار ومجرور متعلق ب (تاركوا) ، وفصل به بين المضاف والمضاف إليه ، والأصل : هل أنتم تاركوا صاحبي لي .[48]

موقف الشاطبي من الاستشهاد بأشعار العرب :

استشهد الشاطبي بأشعار العرب ، فهو يمثل بالشواهد التي قاس عليها العلماء قواعدهم واتفقوا عليها في الأخذ بآراء العلماء والتسليم بها - إذا كانت

مناسبة ، أو مناقشتها ، أو الرد عليها - إذا كان هناك مجال للرد والمناقشة ، وكان يمثل بالشواهد الشاذة ويخرجها ولا يقيس عليها ، وهو بذلك أقرب إلى مذهب البصريين ، وللدلالة على القوة العقلية عنده والمرونة العلمية في هذه اللغة العربية اتبع رأي الجمهور ، ورد على ابن مالك رأيه في استعمال الضرورة للتوسعة على طلاب العلم وتقوية آراء العلماء [٤٩] ، فعند بيان مميزات الفعل يقول الشاطبي : " واعلم أن نون التوكيد قد تدخل على الاسم لكن شاذاً في الشعر ، نحو ما أنشد ابن جني :[٥٠]

❖ أقائلن أحضروا الشهودَا ❖

وأنشد أيضاً : [٥١]

❖ أشاهرَن بعدنا السيوفَا ❖

فليس بقادح في كون النون خاصة فلا يعترض على الناظم به ؛ لأنه إنما بنى على المشهور " [٥٢]

وقد ذكر الإمام الشاطبي – رحمه الله – قوله تعالى " إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين" [٥٣] في باب : (إعراب الفعل المضارع المعتل الآخر) ، فأوضح أن حرف العلة يحذف من المضارع عند الجزم ، وأن هذا الحكم قد يخالف في الضرورة والاختيار فقال : " . . . وذلك أن مخالفة هذا الحكم جاءت على ضربين : أحدهما : جاء في الشعر ، والآخر : جاء في الكلام :فمما جاء في الشعر قوله :

إذا العَجوزُ غَضِبَتْ فَطَلِّقْ ❖❖ وَلاَ تَرَضَّاهَا ولا تَمَلَّقِ[٥٤]

فقدر الجزم في الألف ، ولذلك لم يحذفها .

الخاتمة

من خلال هذا العرض لحياة الإمام العلامة أبي إسحاق الشاطبي وجهوده في علوم الشرع واللغة يتبين لنا أن الإمام الشاطبي من أكابر العلماء ، عالما بالمنقول و المعقول، مبينا للسنة ، محاربا لأهل البدع ، مفسرا و محدثا و لغويا ، له الإمامة العظمى في الفنون فقها وعربية ، وقد ساهم في الحركة الفكرية في عصره ، بالرغم من كثرة الحروب في عهده ، أخذ العلوم عن صفوة مختارة من علماء عصره ، و أخذ عنه جماعة كانوا غرة في جبين الدهر نشروا العلم في ربوع الأرض ، و له اطلاع واسع وباع طويل وغزارة علمية في كافة العلوم العربية و العقلية والنقلية ، أثرى المكتبة الإسلامية بمصنفات عدة في مختلف العلوم والفنون ، استشهد بالأحاديث النبوية التي اعتنى أصحابها بألفاظها - موافقا ابن مالك و مخالفا أبا حيان - استشهد بأشعار العرب في وضع قواعد العربية ، له آراء انفرد بها نقلت عنه في كتب اللاحقين ، لم يكن علمه قاصرا على الجانب اللغوي و الشرعي فحسب بل له مصنفات قيمة في الأدب و المنطق و الطرف و الملح .

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم، سورة المجادلة : ١١ .
٢- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، ج ١ ، (دمشق : دار ابن كثير ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) ، ص ١١٩ ؛ سلمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشر الأزدي المشهور بأبي داود ، سنن أبي داود، ج ١٠ ، (حلب : مكتبة المطبوعات الإسلامية ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م) ، ص ٤٩ .
٣ - عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، ج ١ ، (بيروت : دار إحياء التراث العربى ط ٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) ، ص ١١٨ .
٤- إسماعيل باشا البغدادي ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، ج ٢، (بيروت: دار إحياء التراث العربي ، د.ت) ، ص ١٢٧ .
٥ - أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ت - عبد الحميد بن محمد الأنصاري ، (بيروت : دار الكتب العلمية ط ١ ، ١٤٢٤هـ) ، ص٤٧ – ٤٩ .
٦ - بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ٥، (الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ١٩٨٦م) ، ص ٢٩٠ .
٧ - إبراهيم محمد الجرمي ، الإمام الشاطبي سيد القراء - أعلام المسلمين ٧٤ – (دمشق : دار القلم ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ / ، ٢٠٠٠م) ، ص ٥٤ .
٨ - خيرالدين الزركلي ، الأعلام – ، ج ١ ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ١ ، ١٩٨٠م) ، ص ١٦ .
٩ - إسماعيل باشا البغدادي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
١٠- أحمد بن محمد المقري ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، رقم ٢٣٤ – ت - مصطفى السقا - عبد السلام هراس ، ج ٢ ، (القاهرة : لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م) ، ص ٢١٧ .
١١- الشيخ عبد المتعال الصعيدي ، المجددون في الإسلام ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٢م) ، ص ٣٠٧ – ٣١٢ .
١٢- ابن الأحمر الأندلسي الفاسي ، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ، ت - محمد رضوان – (بيروت : دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٦٧م) ، ص ٢١ – ٢٤ .
١٣- أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد التنبكتي ، المرجع السابق ص ١ - ٤٦ .
١٤ - عبد الحي بن عبد الكبير الكتابى ، فهرس الفهارس ، ت - إحسان عباس ج١ ، (بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط ٣ ، ٢٠١٠م) ، ص ١٣٤ .
١٥- ابن حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب ، ج ٩ ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ٢٠٠٨ م) ، ص ٤٧ .

١٦- فهرس الفهارس ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٤ .
١٧- أزهار الرياض للمقري ، المرجع السابق ، رقم ٢٣٤ ، ص٧ .
١٨- أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد التنبكتي ، المرجع السابق ص ١ – ٤٦ .
١٩ - إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي ، الموافقات في أصول الأحكام ت - مشهور بن حسن آل سليمان ، ج ٦ ، (السعودية : دار بن عفان للنشر والتوزيع ، ط ٢، ٢٠٠٨م) ، ص ٢ .
٢٠ - د . محمد يوسف موسى ، المدخل لدراسة الفقه الإسلامي ، (القاهرة : دار الفكر العربي ، ط ٢ ١٣٨٠هـ ١٩٦١م) ، ص ٨٢ .
٢١- الموافقات ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ .
٢٢- أحمدبن عبد الحليم بن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ت - علي بن محمد العمران ، (جدة : مجمع الفقه الإسلامي ط ١ ، ١٤٢٩هـ) ، ص ١٢ .
٢٣ - الموافقات ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٣٦ .
٢٤ - الموافقات ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٣٠٥ .
٢٥ - الاعتصام ، إبراهيم بن موسى الشاطبي ، ت - سليم بن عبد الهلالي ، ج ١ (السعودية : دار ابن عفان ، ط ١، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ، ص ١٢٤ .
٢٦ - الاعتصام ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص١١٠ .
٢٧ - إيضاح المكنون للبغدادي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .
٢٨ - نيل الابتهاج ، المرجع السابق ، ص ١ - ٤٦ .
٢٩ - المجددون في الإسلام ، المرجع السابق ، ٣٠٧ – ٣١٢ .
٣٠ - نيل الابتهاج ، المرجع السابق ، ص ١ – ٤٦ .
٣١- إيضاح المكنون للبغدادي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
٣٢- نيل الابتهاج ، المرجع السابق ، ص ١ – ٤٦ .
٣٣- المرجع السابق ، ص ٤٥ .
٣٤ - معجم المطبوعات العربية ليوسف إليان سركيس ، ج ١ ، (القاهرة : مطبعة سركيس ، ط ١ ، ١٩٢٨م ، ص ١٠٩١ وفيه : ألف تآليف نفيسة منها : شرح على الخلاصة في النحو.
٣٥- طبع في جامعة ام القرى بمكة المكرمة ٢٠٠٧م .
٣٦- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية للإمام إبراهيم بن موسى الشاطبي ، ت - ا د . محمد إبراهيم البنا ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلام ، ج ١ ، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى ط ١ ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م) ص ٣٨٦ ، ٦٥٥ .
٣٧ - المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٣ .

٣٨ - المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٩٦ ، ١٢٧ .
٣٩ - المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٩٦ ، ١٢٧ .
٤٠ - المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، ٢٣٦ ، ج ٣ ، ص ١٦ ، ١٣٢ .
٤١ - قراءة الكوفيين في الآية (جعل) عطفا على (فالق) ؛ لأنها في معنى (جاعل) ، أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري - حاشية الشهاب (عناية القاضي وكفاية الراضي) على تفسير البيضاوي ، ج ١ ، (بيروت : دار إحياء التراث العربى ، ١٩٨٢م) ، ص ١٧٦ .
٤٢ - محمد بن الحسن الإستراباذي النجفي - شرح الرضي على الكافية ، ج ٣ ، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط ١ ، ١٩٦٦م) ، ص ٣١٩ .
٤٣- القرآن الكريم ، سورة العاديات : ٣ — ٤ .
٤٤- القرآن الكريم ، سورة الأنعام : ٩٥ .
٤٥- المقاصد الشافية ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٧٩ .
٤٦ - عبد القادر بن عمر البغدادى ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب - تحقيق وشرح - عبدالسلام محمد هارون ، ج ١ ، (القاهرة : مكتبة الخانجي، ط ٣ ، ١٩٨٩م) ، ص ٦ .
٤٧ - الحديث رواه البخاري في كتاب : (التفسير) في تفسير سورة الأعراف - باب ٢ - حديث رقم (٤٦٤٠) من حديث أبي الدرداء .
٤٨- المقاصد الشافية ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .
٤٩- المقاصد الشافية ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤١٥ ، ٥٥٨ .
٥٠ - البيت في الخزانة ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢١ .
٥١ - البيت في الخزانة ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢١ .
٥٢ - المقاصد الشافية ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٨ .
٥٣ - القرآن الكريم ، سورة يوسف : ٩٠ .
٥٤ - الرجز بلا نسبة في الخزانة ج ٨ ، ص ٣٩٥ - ٣٦٠ ؛ توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي المعروف بابن أم قاسم - ت. د. عبد الرحمن على سلمان — ج ١ ، (القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، د. ت.) ، ص ٣٥٢ . والشاهد : (ولا ترضاها) حيث أثبت الألف مع الجازم ، وهو (لا) الناهية . المعنى : إذا غضبت العجوز وخاصمتك فطلقها ولا ترفق بها .

من تاريخ الحضارة الإسلامية :

الترجمة العربية في عهد الرسول والخلافة الراشدة *

(الحلقة الأولى)

الدكتور ثمامة فيصل بن أبي المكارم
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية ، جامعة مولانا آزاد الوطنية الأردية لكناؤ

المقدمة الترجمةُ بمدلولها الاصطلاحي المعروفِ اليومَ الدالّ على نقل الكلام من لغة إلى أخرى عملية قديمة قِدَمَ اللغات واللهجات التي نَطق بها الإنسان في هذه الدنيا . وما زالت هذه العملية جارية متداولة في شكل من أشكالها منذ القِدَم كضرورة اجتماعية وثقافية وحضارية وتجارية وعلمية للإنسان ؛ بحيث إن كثيرا ما يحتاج إليها لنفض غبار الجهل والتخلف وإزالة الصدأ الذي يتراكم على عقله مع مرور الأيام . ويدل تاريخ الحضارات الإنسانية على أن الترجمة من العوامل التي قامت بدور ملموس في ظهور كثير من تلك الحضارات وازدهارها ، فإنها وسيلة ترفد العقول وتسعفها وترويها بما يعيد إليها حياتها وحيويتها ، وتخرجها من ظلامها ، وتوقظها من سباتها . وهي جسر يعبر به الإنسان من أرض قرعاء جرداء قاحلة إلى أرض خصبة وتربة معشبة تسقي عقله وتوسع آفاقه وتزيل عطشه وتشفي غليله . فكانت للنقل والترجمة إسهامات عظيمة وخدمات جليلة في ظهور كثير من الحضارات والثقافات التي شهدها التاريخ الإنساني .

ومع أنه لا يمكن تحديد أول من استخدم وسيلة الترجمة من الأفراد والشعوب ، إلا أن أقدم الآثار المدونة التي عثر عليها علماء الآثار ترجع إلى عصر الفراعنة في مصرَ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ؛ حيث اكتُشِفتْ عدة أحجار منقوشة بلغتين بجزيرة فيلة في أسوان بجنوب مصر . كما عثر الباحثون على بعض النصوص المترجمة المنقوشة على حجر رُشيد وعلى ألواح تل العمارية وعلى ألواح مدينة نينوى بالعراق . ومن إشارات الترجمة المبكرة كذلك ما نجده في الرسائل التي أرسلها أمراء الشام إلى أخناتون يطلبون فيها المال والمعونة[1].

---

* قُدِّمَ هذا البحثُ في المؤتمر الدولي الذي عقدته كلية اللغة العربية لجامعة الأزهر بإيتاي البارود في ٢٨ و٢٩ من أكتوبر ٢٠١٤م بعنوان: "الثقافة العربية في القرون الأربعة الأولى من الهجرة".

١ عز الدين محمد نجيب : أسس الترجمة ص ٥ ، ومحمد أحمد منصور: الترجمة بين النظرية والتطبيق مباديء ونصوص وقاموس للمصطلحات الإسلامية ص ٩

أما أقدم الأعمال المستقلة الجادة في مجال الترجمة فمنها ما قام به الكاتب الأديب والخطيب الروماني شيشرون Cicero (١٠٦- ٤٣ ق.م) الذي يعد أولَ من وَضَعَ الخطوط العريضة لمنهج الترجمة ، ومن أقدم الأعمال في مجال الترجمة أيضا ما ترجمه الصينيون من النصوص البوذية من اللغة السنسكريتية وهي لغة الهند القديمة إلى لغتهم[١].

ومن أهم حركات النقل والترجمة في تاريخ الحضارة الإنسانية ما شهدته القرون التي سبقت ظهورَ الإسلام في إيران وبلاد الرافدين ؛ حيث اهتم الفرس بترجمة التراث العلمي للهنود في جانب ، واهتم السريان بنقل التراث العلمي اليوناني بلغتهم السريانية في جانب آخر وزاولوا نشاط الترجمة في مراكزهم العلمية مثل الرُّها ونَصيبين وجُنْدَيسابور وحَرَّان وغيرها . وهاتان اللغتان أي اللغة الفارسية القديمة واللغة السريانية هما اللغتان اللتان اعتمد عليهما المسلمون بشكل رئيسي في ترجمة التراث العلمي للحضارات السابقة بلغتهم العربية ولقحوه بتراثهم العربي الإسلامي وأقاموا عليه صرح حضارتهم العربية الإسلامية التي شهدتها القرون الزاهرة الأولى من تاريخ الإسلام في الشرق الإسلامي وفي بلاد الأندلس[٢].

ولا يخفى على أحد ما شهده القرن الثاني الهجري وما تلاه من القرون من نشاطات ملموسة في مجال النقل والترجمة من لغات أخرى إلى اللغة العربية على أيدي فطاحل المترجمين المتمكنين الذين لم يألوا جهدا في إثراء العلوم العربية وتغذيتها بترجمة ما أُلِّفَ في حضارات الأمم السابقة ، فلا يمكن إنكارُ الفضل الذي يرجع إلى أمثال يوحنا بن البطريق وحنين بن إسحق وإسحق بن حنين بن إسحق وعبد الله بن المقفع وابن ناعمة وغيرهم من نحارير المترجمين الذين وقفوا حياتهم لخدمة العلم ، وكذلك لا يمكن إهمال الفضل الذي يرجع إلى الخلفاء والأمراء من أمثال خالد بن يزيد بن معاوية وعمر بن عبد العزيز وأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد وابنه المأمون الذين في ظل حكمهم وتحت رعايتهم ازدهر نشاط النقل والترجمة الذي مهد الطريق لطلوع شمس الحضارة العربية الإسلامية .

أما النقل والترجمة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وما تلاه من عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، فهذا هو الموضوع الذي يدور

---

١ محمد أحمد منصور : الترجمة بين النظرية والتطبيق مباديء ونصوص وقاموس للمصطلحات الإسلامية ص ٢١ ، ومحمد عناني : نظرية الترجمة الحديثة مدخل إلى مبحث دراسات الترجمة ص ٢٧ - ٢٨ ، وعز الدين محمد نجيب : أسس الترجمة ص ٥

٢ علي حسني الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ص ٢٥٥

حوله هذا البحث الذي عنوانه: "الترجمة العربية في عهد الرسول والخلافة الراشدة" ، وحاولتُ من خلاله دراسة ما شهده عصرُ صدر الإسلام من مناسبات ووقائع استُخدمتْ فيها الترجمة وسيلة للتواصل والتراسل بين الناس من العرب وغيرهم . وبما أن هذا العصر كان عصرَ البعثة والرسالة وتأسيس الدعوة الإسلامية وإرساء دعائم أول دولة إسلامية لم يتهيأ للعرب أن يفكروا في نقل علوم الأمم الأخرى إلى لغتهم ، بل كان جلُ اهتمامهم منصبًا على نشر الدعوة الإسلامية وترسيخ دعائم الدولة الإسلامية ، فشغلتهم الحروبُ عن الاهتمام بالآداب والعلوم ، فلا نكاد نجد أي نشاط للنقل والترجمة في هذا العصر يمكن أن نطلق عليه حركة النقل والترجمة ، بل نجد فيه من الأحداث والوقائع والفرص والمناسبات ما يدل على استخدام هذه الوسيلة لسد الحاجة والضرورة فحسب دون استخدامها لنقل العلوم والمعارف التي خلفتها الأمم الماضية ، اللهم إلا ما يُروى من ترجمة بعض الكتب السماوية وبالتحديد الإنجيل اقتباسا وأطرافا لا جملة واستكمالا . ومن المعروف دعوى بعض الباحثين المستشرقين حول عدم وجود أي ترجمة عربية للإنجيل بشكل كامل قبل بعثة الرسول . وظل الأمر كذلك إلى أن قامت الخلافة الأموية حيث سنح للخلفاء والعلماء التفكيرُ في مختلف النشاطات العلمية بما فيها الترجمة .

وركزتُ في هذه الدراسة على ما شهده عصر الرسول والخلافة الراشدة من نشاط للنقل والترجمة . وانتهجتُ في كتابتها المنهجَ التاريخي التحليلي . وقسمتها إلى بابين بالإضافة إلى مقدمة وتمهيد وخاتمة وقائمة للمراجع والمصادر . فقدمت في التمهيد خلفية للموضوع وتحدثتُ فيه حول نشاط النقل الترجمة قبل ظهور الإسلام . وتناولت في الباب الأول الترجمة العربية في عصر الرسول عليه السلام ، بينما تناولت في الباب الثاني نشاط الترجمة العربية في عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم . واعتمدت في إعداد هذا البحث على كتب التاريخ وكتب السيرة النبوية التي تروي لنا الأحداث والوقائع من عصر الرسول والخلافة الراشدة ، واستفدت من كتب الأحاديث وشروحها ، كما استفدت من الكتب والدراسات التي ظهرت في العصر الحديث حول حركات النقل والترجمة في تاريخ الإسلام . وقد ذكرت أسماء هذه الكتب في قائمة المراجع والمصادر في نهاية البحث . وقد توخيتُ من خلال دراسة هذا الموضوع تعريفَ القراء بالبذور الأولى للترجمة العربية في عصر صدر الإسلام ، وما التوفيق إلا بالله .

تمهيد: الترجمة من العربية وإليها قبل ظهور الإسلام :

قبل الخوض في صميم الموضوع يجدر بنا أن نلقي نظرة خاطفة

على نشاط النقل والترجمة من العربية وإليها قبل ظهور الإسلام . تدل المصادر التاريخية على وجود حركة نقل العلوم اليونانية إلى اللغة السريانية على نطاق واسع في بعض المراكز العلمية الكائنة على التخوم الشمالية لشبه الجزيرة العربية حيث جرت ترجمة عدد جم من الكتب في شتى المجالات العلمية والفلسفية . وكانت المدرسة الإسكندرية مركزا هاما للعلوم اليونانية وبخاصة الطب والفسلفة طوال قرون طويلة منذ فتوحات الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد حتى القرن الخامس الميلادي . ثم ظهرت الأديرة المسيحية في بلاد سوريا القديمة وأرض الرافدين "كمرابع للثقافة اليونانية التي اكتسبها سكان هذه الأديرة من طريق ترجمات عديدة" . ثم أقيمت مراكز ومدارس علمية جديدة بفضل الاهتمام البالغ لدى الأباطرة الفرس بمختلف العلوم والفنون وعلى رأسهم الإمبراطور كسرى أنو شروان الذي أنشأ في جُندَيسابُور بخورستان مدرسة طبية شهيرة سنة ٥٣١م حيث دُرِّسَت العلومُ اليونانية باللغة السريانية مما شجع الكثير من العلماء والباحثين على الهجرة من مدرسة الإسكندرية إليها وإلى المدن الأخرى التي حظيت برعاية الفرس وعنايتهم الخاصة[1].

ولم تكن جنديسابور هي المدينة الوحيدة التي نشطت فيها حركة النقل والترجمة وتدريس العلوم اليونانية ، بل ظهرت في تلك الآونة عدة مدن لا تقل أهمية من جنديسابور من حيث مكانتها العلمية . ومن أشهر تلك المراكز العلمية الرُّها ونَصِيبِيْن وحَرّان .[2] فازدهرت في مدينة حران بخاصة العلومُ الرياضية والفلكية التي "أنبتتها الحضارة الأكدية من قبل ، ثم رعتها الحركة الهلينستية"[3]. "وأنشئت في هذه الأصقاع مدارس دينية متعددة كانت تُعَلِّم فيها السريانية واليونانية جميعا"[4].

ولم يكن العرب في منأى عن هذه المراكز العلمية وحواضر الفرس والرومان الأخرى بسبب تجاورهم لها وقربهم منها ولدوافع عديدة أخرى . فالدويلات العربية التي قامت على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام كانت على صلة بالحضارتين الفارسية

---

١ كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (الترجمة العربية: السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب) جـ ٤ ص ٨٩ ، ومريم سلامة كار: الترجمة في العصر العباسي مدرسة حنين بن أسحق وأهميتها في الترجمة ص ١٠- ١١

٢ مريم سلامة كار: الترجمة في العصر العباسي مدرسة حنين بن أسحق وأهميتها في الترجمة ص ١١

٣ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ ٤ ص ٩٠

٤ الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية ص ٢٥٤

والرومانية ؛ بحيث اتخذ الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون من الغساسنة حاجزًا يحول بينهم وبين عدوهم من الفرس والبدو ، واتخذ الساسانيون ملوك الفرس من دولة المناذرة درعًا لهم تحميهم من غارات البدو وهجمات الرومان والغساسنة ، وقامت بين هاتين الدولتين إمارة كِندة في شمال نجد ، ويكفي كلُ هذا للدلالة على مدى احتكاك العرب بحضارات الأمم المختلفة قبل ظهور الإسلام .[1] وفي جنوب شبه الجزيرة العربية قامت حضارة اليمن حيث نشأت ثلاث دول عربية وهي الدولة المعينية (١٢٠٠-٦٥٠ ق . م .) والدولة السبأية (٩٥٠- ١١٥ ق . م .) والدولة الحميرة (١١٥ ق .م . — ٥٢٥م) . وكانت الحضارة اليمنية وبخاصة في القرون السابقة على الإسلام على صلة بالفرس . والحقيقة أن الدولتين العربيتين أي دولة الغساسنة في جهة الرومان ودولة المناذرة في جهة الفرس كان لهما دور كبير في نقل معالم الحضارتين الفارسية واليونانية إلى العرب .[2]

هذا وكانت النشاطات التجارية تربط العرب بالأمم المجاورة لهم عن طريق رحلاتهم في الشتاء والصيف .[3] ويذكر أن هاشم بن عبد مناف كان أول من سنّ الرحلتين لقريش . وكان عرب الحجاز وبخاصة أهل مكة يهتمون بالتجارة مع اليمن والشام .[4] وشهدت المدن الواقعة في الحجاز من مكة والمدينة والطائف نوعا من الحضارة بفضل موقعها الاستراتيجي ومكانتها الدينية وأسواقها التي كانت تقام في المواسم وبفضل رحلاتهم التجارية مما هيأ لهم الاحتكاك بحضارات أخرى ، وهذا التواصل والاختلاط مع أهل هذه الحضارات كان يحتاج إلى وسيلة ليتم بها التفاهم فيما بينهم ، ولم تكن هذه الوسيلة غير الترجمة . فكانوا يلجأون إلى التراجمة الذين كانت مهمتهم تيسير عملية التفاهم والتواصل بين العرب والأمم الأخرى كما سيتضح ذلك من الأمثلة التي سأوردها فيما يلي .

يُذكر أن الحارث بن كلدة الثقفي سافر إلى شتى البلاد ، وتعلم الطب بناحية فارس على رجل من أهل جنديسابور وغيرها .[5] وهذا يدل دلالة واضحة على أن العرب توجهوا إلى هذه المراكز العلمية ليغترفوا منها مختلف العلوم والفنون ، الأمر الذي لا يمكن أن يتيسر دون معرفة اللغات

---

١ شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص ٤٠

٢ حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٩ ، محمد أحمد منصور: الترجمة بين النظرية والتطبيق مباديء ونصوص وقاموس للمصطلحات الإسلامية ص ٢١

٣ قريش ٢ - ١٠٦

٤ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك أو تاريخ الطبري (تحقيق: أبو صهيب الكرمي) ص ٢٩٤ ، وحسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠

٥ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٨ ص ٣٨١

المتداولة آنذاك في تلك المراكز أو اللجوء إلى ترجمات الكتب العلمية باللغة العربية ، فلا بد إذن من وجود نشاط للنقل والترجمة من العربية وإليها في تلك المراكز العلمية .

وتفيدنا مصادر التاريخ أن شعراء العربية كانوا يجوبون البلاد والأمصار وراء حدود شبه الجزيرة العربية . فكان الشعراء يزورون المدن والحواضر غير العربية إما بحثا عن المال والجاه من حكامها كما اعترف بذلك الأعشى أو طلبا للعون والمساعدة لأغراض سياسية كما يروى عن الشاعر امريء القيس بن حجر الكندي . فيقول الأعشى في شعره مشيرا إلى رحلاته إلى مختلف البلدان:

وَقَدْ طُفْتُ للمَالِ آفَاقَهُ:
عُمَانَ، فحِمصَ، فَأُورِيشَلِمْ
أتيتُ النجَاشيّ في أرضِهِ،
وأرضَ النّبيطِ وأرضَ العجمْ
فنجرانَ فالسّروَ من حميرٍ،
فأيَّ مرام لهُ لم أرمْ [1]

أما رحلة امريء القيس إلى قسطنطنية ولجوؤه إلى قيصر جوستنيان وموته بعد لبسه حلة مسمومة أرسلها إليه قيصر وهو في طريق عودته إلى وطنه كندة ، فهذا الحادث معروف ومسجل في كتب الأدب والتاريخ . وتدل هذه القصة على أن العرب كانوا على اتصال بالأمم الأخرى لأغراض شتى ، الأمر الذي يدل على وجود تراجمة لدى العرب ولدى هؤلاء الأمراء والحكام من غير العرب [2].

ويذكر أن الإنجيل كان قد تُرجم بالعربية قبل ظهور الإسلام ، كما أشار إلى ذلك بروكلمان في "تاريخ الأدب العربي" قائلا: "ربما كانت أقدم ترجمة عربية هي ترجمة الإنجيل التي نشأت في بطريركية أنطاكية ونقلت إلى بطريركية أورشليم المجاورة قبل حرب الإمبراطور هركليوس المظفرة ضد الفرس ، ربما وجدت إلى جانب ذلك ترجمة للإنجيل من زمن الجاهلية نقلت عن الآرامية الفلسطينية المسيحية" [3]. ومما لا شك فيه أن العرب وبخاصة أهل الكتاب منهم كانوا على علم بما جاء في الإنجيل والتوراة سواء كان ذلك عن طريق ترجمتهما أو عن طريق تعلمهم إياهما على أيدي الأحبار والرهبان من العرب وغيرهم .

---

[1] الأعشى قيس بن ميمون: ديوان الأعشى (تحقيق: محمود إبراهيم محمد الرضواني) جـ ١ ص ١٧٩

[2] شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص ٢٣٩.

[3] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ ٤ ص ٩٠

وتشير المصادر التاريخية إلى أن اليهود في الحجاز كانوا على علم بالسريانية ، وهذا أمر طبيعي لا يمكن إنكاره ، فجاء في قصة إعادة بناء الكعبة قبل بعثة الرسول التي رواها ابن هشام في سيرته أن العرب لما فكروا في هدم الكعبة وإعادة بنائها جزّؤوها بين القبائل ، وهابوا هدمها وفرقوا منه ؛ إلى أن تجاسر عليه الوليد بن المغيرة وهدم جزءا من ناحية الركنين ، ثم هدموها جميعا . وجاء في هذه القصة أن قريشا وجدوا في ركن الكعبة كتابا بالسريانية ، فلم يدروا ما فيه ؛ حتى قرأه لهم رجل من اليهود ، فإذا هو: (أنا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها ، مبارك لأهلها في الماء واللبن) . قال ابن هشام: أخشباها: جبلاها .

ويتضح من هذه القصة أن الإلمام بالسريانية لم يكن شائعا بين عرب الحجاز من الكفار والمشركين مثلما كان شائعا بين يهودها .[1] ومع قلة اهتمام العرب بتعلم لغات أخرى ، فإن كثيرا من كلمات تلك اللغات كانت شائعة ومستعملة لديهم في العصر الجاهلي بسبب اختلاطهم بأصحابها . فقد أشار المؤرخون إلى شيوع كلمات فارسية ورومية وحبشية في شبه الجزيرة العربية عن طريق الرقيق الذين كان يتخذهم أهلها .[2] ونجد عددا كبيرا من هذه الكلمات الأعجمية في الشعر العربي من العصر الجاهلي . وكانت قد خضعت معظم هذه الكلمات التعريب وفق معايير اللغة العربية وقوانينها . وقد عد الباحثون عشرات الكلمات الدخيلة التي استعملت في العصر الجاهلي . "وكان هذا دأب العرب في جاهليتهم ، تجري على ألسنتهم بعض الألفاظ ، التي يحتاجون إليها ، من لغات الأمم المجاورة لهم ، بعد أن ينفخوا فيها من روحهم العربية ، ويتلقفها الشعراء منهم ، فيدخلونها في أشعارهم وأرجازهم ، فهذا الأعشى ميمون بن قيس ، يكثر في شعره ذكر اليرندج ، والديابوذ ، وإستار ، وإسفنط ، والبستان ، والبوصي، والرجان ، والجلسان ، والبنفسج ، والمرزجوش ، وغير ذلك . كما يشيع في شعر عدي بن زيد ذكر الإبريق ، والجؤذر ، والخوان ، والدخدار ، والمرزبان ، وغير ذلك" .[3]

ومما يدل على مكانة التراجمة في ذلك العصر استخدام ملك الحبشة أبرهة ترجمانا له لمكالمة عبد المطلب بن هاشم حول مائتي بعير

---

[1] ابن هشام: السيرة النبوية (تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شبلي) جـ ١ ص ١٩٥

[2] أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٢٥١

[3] رمضان عبد التواب: فصول في فقه اللغة ص ٣٥٩

لعبد المطلب قَبَضَ عليها أبرهة . فيروي لنا ابنُ هشام هذه القصة في سيرته حيث يقول: "وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يُجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يُجلسه معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ، ثم قال لترجمانه: قل له حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان ، فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي . فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لأهدمه ، لا تكلمني فيه ! ؟ فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الابل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . فقال: ما كان ليمتنع مني . قال : أنت وذاك . فرد على عبد المطلب إبله " .[1] فكان اتخاذ التراجمة ضرورة لا غنى عنها للملوك والأمراء أثناء حملاتهم العسكرية واتصالاتهم الدبلوماسية مع نظرائهم وأبناء البلدان وأعيانها مثل ما جرى بين أبرهة وعبد المطلب .

ومثل أبرهة اتخذ كسرى ترجمانا كان يترجم له أثناء مخاطبته الوافدين عليه من العرب . فنجد في قصة غيلان بن سلمة الثقفي الذي مثّلَ أمام كسرى جماعة من التجار القرشيين والثقفيين منهم أبوسفيان . فلما عزموا السفرَ إلى قصر كسرى لِلقائه ، خاف أبو سفيان القدوم عليه والكلام معه دون أي دعوة سابقة موجهة إليهم من قبل كسرى . فتولى غيلان حلَ هذه المشكلة وأقدَمَ على كسرى وجرى بينهما حديث طويل ، وأعجب بكلامه كسرى ، وكان ترجمانه يترجم بينهما أثناء هذه المكالمة.[2]

ويذكر أن عدي بن زيد كان أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى . كان عدي شاعرا وكان هو وابنه زيد يتقنان العربية والفارسية وعمل كل منهما لدى كسرى كاتبا وترجمانا له . "تعلم عدي الكتابة والكلام بالفارسية حتى خرج من أفهم الناس بها وأفصحهم بالعربية" . أما ابنه زيد فولاه كسرى مكان أبيه ، وكان يلي الكتابة عنده إلى ملوك العرب وفي خواص أمور الملك.[3] (للبحث صلة)

---

١ ابن هشام: السيرة النبوية جـ ١ ص٤٩ ، وابن كثير: البداية والنهاية (تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي) جـ ٣ ص ١٤٧

٢ أبو هلال العسكري: الأوائل (تحقيق: محمد السيد الوكيل) ص ٤٤١

٣ عبد القادر بن عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب (تحقيق: عبد السلام هارون) جـ ١ ص ٣٨٢

صور وأوضاع

بين موقف وموقف

الأستاذ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي

إن هناك فارقاً كبيراً ملموساً بين العالم الإسلامي الشرقي، والعالم المسيحي الغربي، ويشاهد هذا الفارق في الظروف السياسية والاقتصادية والتعليمية والتربوية.

لقد أشيع بقوة أن أوربا بعد انتشار العلم فيها، ثارت على الدين، وأنها تحارب الدين، وترفع مكانة العقل والفكر الحرّ على التقليد والأصولية، والأهداف على الوسائل، والمصالح على القيم والمثل، والتطور على الثبات، وأقصى ما تقبله الدول الأوربية في مجال الدين، هي العلمانية، وهو فصل الدين عن السياسة والحياة، وجعل الدين مسألة شخصية.

ولكن دراسة التاريخ والواقع تدل على مخالفة سائر هذه التصورات والنظريات، وكل من يدرس التاريخ والواقع يجد مخالفات لهذه السياسة والموقف حتى في مجالات الخدمة الإنسانية، وما يسمى بالبر والإحسان، ويجد الباحث ميلاً إلى جانب في المواقف والمعاملة والسلوك للدول الأوربية؛ ففي مجال الدين تقوم سائر الدول الأوربية المسيحية بالمساعدة في نشاط التبشير، وتساعد الإرساليات الناشطة في عمل التبشير في العالم كله، وخاصة في العالم الإسلامي، ويسهم في هذا العمل المثقفون والساسة، وتستخدم لدعم هذا النشاط التبشيري وسائل سياسية واقتصادية، وتتدفق المعونات المالية، وتستغل جمعيات البر والإحسان هذه الوسائل حتى في المستشفيات، وتستغل الكوارث والمآسي الإنسانية لهذا الغرض، وكل من يطلع على وسائل التبشير المهيأة للجمعيات يلاحظ ذلك الموقف من جمعيات التبشير ومنها وسائل الإعلام والنفوذ، وقد تغلغل المبشرون في قطاعات الحياة المختلفة، وخاصة المستشرقون الذين تغير كتبهم ذهن المسلم المثقف بأفكار مغايرة لعقليته وفكره عن الإسلام والتاريخ

الإسلامي، فتسرب عدد كبير من المستشرقين في مراكز التعليم في الدول الإسلامية، وكانت مصر في رأس القائمة، وبهم تأثر المثقفون المسلمون، واعتبر هؤلاء المثقفون الكتب المؤلفة في أوربا حول الإسلام والتاريخ الإسلامي مصدراً موثوقاً به، وقبلت أذهان المسلمين في هذه المراكز أو غرس في أذهانهم تفوُّق الغرب في العلم.

ويظهر بذلك تمسُّك أوربا بالمسيحية والفكر المسيحي وغلبته ونفوذه، وبجانب ذلك توجد في الدول الأوربية المسيحية حساسية أو ما يسمى بالغيرة الدينية والولاء للمسيحية والعطف مع المسيحيين في العالم، ويظهر ذلك بأي سلوك مع المسيحيين المنتشرين في العالم أو الرهبان والكنائس، فإذا حدث في أقصى منطقة في آسيا وإفريقيا ما يسيئ إلى المسيحية أو إلى شخص مسيحي فتثور عاطفة الساسة والقادة؛ بل الحكومات التي تدعي العلمانية وإقصاء الدين عن السياسة، وأمثلة هذه الغيرة كثيرة. وقد تحولت عدة مناطق في الدول الإسلامية إلى مناطق مسيحية بالدعوة واستخدام وسائل مادية كما حدث في إندونيسيا والسودان.

وهذا هو واقع في التاريخ للغرب المسيحي الذي يدعي المثقفون بأنه ثار على الدين أو يعتبر الدين مسألة شخصية، وأحدث مثال له ما حدث في الهند أخيراً؛ إن الحوادث التي وقعت ضد المبشرين، والهجمات على الكنائس، وبيانات المتطرفين الهندوس ضد المسلمين والمسيحيين وإبداء مخططاتهم لإعادتهم، قد دفعت الرئيس الأمريكي على التنديد بهذه البيانات، واضطرت الحكومة الهندية على إصدار بيان بأن الأقليات في الهند ستبقى حرة ومصونة.

والمفارقة بين العالم الأوربي والعالم الإسلامي هو حياد الدول الإسلامية رغم ادعائها بالتمسك بالدين وانتمائها للإسلام، وادعائها بالوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وعقد مؤتمرات في هذا الصدد، فإذا حدث أي حادث أو مأساة للمسلمين في أي جزء في العالم فلا يحدث صدى في دول الأغلبية الإسلامية ولا ردّ فعل من قبل قادتها

وحكامها.

وهذا الحياد من قبل قادة المسلمين في الدول الإسلامية بالنسبة للإسلام والمسلمين هو السبب الرئيسي لتشجيع المسيئين إلى نبي الإسلام والمسلمين حتى ارتكاب المجازر رغم كثرة عدد الدول الإسلامية ذات الأغلبية الإسلامية، وتظهر بعض هذه الدول أنها دول إسلامية، وقد حدثت في العصر الأخير مآسي ومجازر في عدد من الدول غير الإسلامية في أفريقيا وآسيا، ونال قادة الفكر الإسلامي عقوبات وإعدامات، وتستمر هذه السلسلة من الحوادث المسيئة للإسلام والمسلمين، ولكن لا تثير هذه الأحداث المؤلمة أي ردّ فعل، وقصة الصور الكاريكاتورية المسيئة والكتب المسيئة للإسلام وخاصة السيرة النبوية وحياد قادة الدول الإسلامية في هذه الإساءات معروف.

بجانب تدفق المعونات المالية إلى جمعيات غير إسلامية مسيحية وغير مسيحية، فُرضت قيود على المعونات للعمل الإسلامي وإن كان غير ديني، حتى جمعيات البر والإحسان والإغاثة تعرضت للقيود بعنوان مكافحة الإرهاب.

ومن هذه المفارقة بين الفكرة والسلوك، المواقف إزاء العلمانية، فالعلمانية في الدول غير الإسلامية لا تعني معاداة الدين، وتميل الحكومات إلى رغبات الجماهير، وتحترم عقائدها، وتشترك حكامها في مناسبات دينية، ولكن العلمانية في الدول الإسلامية تعني معاداة الدين، ومشاركة أي قائد في مناسبة دينية تعتبر مخالفة للعلمانية، وقد أدين زعيم في بلد إسلامي علماني على عقد مأدبة إفطار أو زيارة بلد إسلامي، واعتبرت إجراءات الزعيم التركي طيب أردوغان ليتخذ بعض إصلاحات، بأنه يريد أسلمة البلد التركي العلماني.

وقد غيرت أقلية غير إسلامية في عدد من الدول النظام السياسي، ولم يخف البابا وقادة أوربا عطفهم مع المسيحيين في بعض الدول الإسلامية.

يواجه المسلمون اليوم تهديدات، وتجري حملة كراهية الإسلام والمسلمين، وتشن هجمات على المساجد ومراكز التعليم والمؤسسات الإسلامية، ولا يثير ذلك أي ردّ فعل في القادة المسلمين ولا تؤثر على علاقاتهم ومعاملات بلدانهم مع المسيئين والمعاندين، وفي أقرب مكان من جوارهم ما تقوم به إسرائيل من إجراءات تعسفية ومعاناة العرب الفلسطينيين بأيديهم.

إن هذا الموقف للحياد يشجع الأعداء على التصرف مع المسلمين حسب مثلهم ومصلحتهم، وكانت الأخوة الإسلامية وتصوُّر الأمة الإسلامية حتى التعاليم الإسلامية تقتضي مساندة المظلوم - سواء كان مسلماً أو غير مسلم - ونصرته وحراسته، فضلاً عن كونه مسلماً، والإسلام دين العدل وإنقاذ البشرية من الجور، كما قال الصحابي الجليل ربعي بن عامر أمام قائد الفرس رستم: ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. وقال سيدنا عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه في قضية مسيحي في مصر: متى استعبدتهم وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

أما المسلمون فهم أحق بنصرة إخوانهم، والإسلام يؤكد على نصرتهم وحمايتهم من تحريف وتشكيك والاعتداء عليهم، وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

ولكن الوضع السائد في الدول الإسلامية من صراعات دموية على السلطة يخيبّ الأمل، وينذر بخطر جسيم على وحدة الأمة، فكيف يرجى من الدول الإسلامية حلُّ القضايا والمشاكل فضلا عن إسعاد البشرية وإنقاذها من الظلم والظلام؟

وما لم يتغير هذا الموقف من الدول الإسلامية تستمر معاناة المسلمين في العالم.

شعارنا الوحيد : إلى الإسلام من جديد

محمد فرمان الندوي

العالم المعاصر يعيش أزمات متنوعة ، ويتموج باضطرابات مختلفة، فيتعرض لها الناس ، وخاصة الشباب المسلم الذي يتأرجح بين الروح والمادة ، ويتسكع في متاهات الجهل والعقلانية ، وقد شاهد العالم فيه فقدان الثقة بالدين ، وقلة الاهتمام بشعائره ، وضعف الارتباط مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فأصيب بزيغ في الفكر ، وردة في العقيدة ، وخواء في الأخلاق .

كان الصراع بين الحق والباطل قائماً منذ الأزل ، وكان الشيطان هو العدو اللدود وألد الخصام ، فتربّص بالإنسان الدوائر وأجلب عليه بخيله ورجله ، حتى تفنن الإنسان في المكر والخديعة ، فاختار وسيلتين لشن الغارة على الإسلام ، وطمس معالمه ، وهما الغارة العسكرية والغارة الفكرية ، فالإسلام مُحارَب في كلا المجالين منذ زمن طويل ، لكن ظلت شمسه طالعة ، وأشعتها ساطعة ، بقوله تعالى : وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (بني إسرائيل : ٨١).

إن داء الإلحاد الفكري الجديد قد استشرى اليوم ، ومرض الردة الفكرية قد اشتد تفاقماً الآن ، فلم يبق مكان إلا وقد دخل فيه ، فالشكوك تغرس ، والشبهات تثار ، والكراهية تزرع ، والثقة بالدين تضعف ، بل العلاقة بالإسلام تقطع ، ويعتبر الدين سُمّاً ناقعاً ، إذا شربه الإنسان مات على عجل ، وقد أثر هذا الإلحاد في الشباب فماتت فيه الغيرة الإيمانية ، وأثر في النساء فغاب عنهن البرقع والحجاب ، وأثر في الشيوخ فتغلبت عليهم المصالح والمنافع ، فليس الإلحاد قضية اليوم والليلة، بل قضية الإيمان والكفر ، وقضية البقاء على الإسلام ، ونبذ حضارته المثالية .

فإذا كان هذا الفساد قد استولى على كل شيئ فلا بد من تصميم دقيق ، وسعي دؤوب مشكور ، وقد ذكر الله تعالى : (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (البقرة : ١٠٩ – ١١٠) ، فالآية تشير إلى تقوية الإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة على صعيد جماعي ، فإذا كانت هذه الشروط مستوفية كان

الرد على الإلحاد الفكري الجديد إيجابياً بناءً ، يقول العلامة الإمام السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى :

" إن جهاد اليوم ، وإن خلافة النبوة ، وإن أعظم القربات وأفضل العبادات أن تقاوم هذه الموجة اللادينية ..... وأن تعاد الثقة المفقودة إلى نفوس الشباب وأن يزال القلق الفكري والاضطراب " .

فدحرا لهذه الردة وردّاً على هذا الإلحاد الفكري الجديد قام العلامة الندوي رحمه الله بثلاث مآثر في الخمسينيات من القرن العشرين الميلادي، إحداها : تأسيس المجمع الإسلامي العلمي في رحاب ندوة العلماء، لكناؤ (الهند) ، وقد أنشئ هذا المجمع في ١٩٥٩م ، وأصدر هذا المجمع حول موضوعات علمية وفكرية كتباً ورسائل يبلغ عددها إلى أكثر من ثلاث مأة ، أخراها : هيئة التعليم الديني لأترابراديش ، أنشئت هذه الهيئة للرد على الأفكار والنزعات الصفراء الهندوسية في الهند ، وقد ركزت هذه الهيئة جهودها على إقامة الكتاتيب والمعاهد الدينية ، وصاغت أذهاناً سليمة من شوائب الإلحاد الفكري الجديد ، وثالثها : إنشاء مجلة البعث الإسلامي عام ١٩٥٥م ، في إدارة فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمد الحسني رحمه الله ، وصحيفة الرائد ١٩٥٩م ، في رئاسة تحرير العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي حفظه الله ، وقد قال منشئ مجلة البعث الإسلامي ، وهو يسلط الضوء على أهداف المجلة :

" إنها ليست مجلة كبعض المجلات الأدبية تلهو وتلعب بالأدب ، وتعبث بالخذف والحصى ، وتسبح بحمد أعلام الغرب وتقدس لهم ، إنها مجلة ذات دعوة ، وذات عقيدة ، وذات مبدأ ، وذات رسالة " .

ولا شك أن هذه المجلة قد قطعت شوطاً كبيراً في إعادة الثقة بالإسلام في الشباب المسلم ، واستنكرت جميع النظرات الباطلة والأفكار الزائفة التي تجتاح العالم الإسلامي وتغزو عقوله ومراكزه ، فأعدت جيلا ، " جديداً في إيمانه ، جديداً في فكرته ، جيلا أبيا لا يلين لإغراء ، ولا يذوب أمام وهج المال وسمو الجاه " وقد حلم منشئها أن تكون المجلة جامعة ، فتكونت جامعة إسلامية في معنى الكلمة ، جامعة دينية في المصطلح العام ، يديرها أستاذنا الشيخ سعيد الأعظمي الندوي ، يتخرج منها الطلاب والطالبات والشباب والشابات والكهول والشيوخ والصغار والكبار ، فينالون شهادات واسعة عريضة ، ووسامات قيمة تقديرية ، وقد تخطت المجلة الحدود والثغور ، وعبرت البحار والعصور ، فاتسع نطاقها ، وعمّ نفعها ، وانتشر صيتها ، وجدير بأن يقال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

إصدارات جديدة :

(١) أهل الحديث في شبه القارة الهندية

أهدى إلينا فضيلة الشيخ الأستاذ عارف جاويد المحمدي هذا الكتاب التاريخي ، الذي يلقي ضوءً لامعاً على تاريخ أهل الحديث في شبه القارة الهندية وعلاقتهم بالمملكة العربية السعودية ، وغيرها من الدول العربية ، قد ألفه الأستاذان الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد ، والشيخ عارف جاويد المحمدي ، والكتاب يتحلى بتقديم العلماء الأعلام : الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العقيل ، والشيخ محمد بن ناصر العبودي ، والشيخ محمد إسحاق البهتي ، والدكتور مقتدى حسن بن محمد يسين الأزهري ، والشيخ علي بن عبدالعزيز الشبل ، والشيخ فلاح خالد المطيري.

الكتاب يحتوي على أربعة أبواب :

الباب الأول : في بيان أهل الحديث في شبه القارة الهندية ودورهم في نشر العقيدة السلفية وحفظ السنة النبوية .

الباب الثاني : يتحدث عن علاقة أهل الحديث بالدولة السعودية الثالثة .

الباب الثالث : يحتوي على ذكر علماء نجد والحجاز والعراق والمغرب الذين أخذوا الحديث عن علماء أهل الحديث في الهند .

أما الباب الرابع فيشتمل على الإجازات الحديثية والعلمية لعلماء أهل الحديث في الهند .

وقد جاء فيما قدّمه فضيلة الشيخ محمد بن ناصر العبودي الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي على هذا الكتاب فقال : " اطلعت على كتاب (أهل الحديث في شبه القارة الهندية وعلاقتهم بالمملكة العربية السعودية وغيرها من الدول العربية : نشرة وثائقية) وقد أعجبت بها إعجاباً كبيراً ، إذ كنت لمست الحاجة إليه ، بل أحسست بذلك إحساساً عظيماً ، لأننا نحن المتابعين للعمل الإسلامي في القارة الهندية ، نعرف حق المعرفة قوة العلاقة بين أهل الحديث هناك وبين الملك عبدالعزيز آل سعود في بدء أعماله العظيمة ، التي تواصلت في توحيد البلاد والعباد ، في هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية " .

وجاء في تقديم سعادة الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العقيل :

" لما اشتهر علماء الهند بالاشتغال في الحديث ، وتميزوا في ذلك رحل إليهم عدد من علماء نجد ، منهم شيخنا علي بن ناصر أبو وادي من عنيزة، ومنهم شيخ مشايخنا إسحاق بن عبدالرحمن آل الشيخ وسعد بن حميد بن عتيق ، فرحلوا من الرياض إلى محدث عصره شيخ مشايخنا المحدث نذير حسين وغيره ، ومن بعدهم شيخنا الشيخ عبدالله بن محمد

القرعاوي ، والشيخ عبدالله بن علي بن عابس وجماعة آخرون ، أخذوا الحديث من الشيخ المحدث أحمد الله الدهلوي ، كما أخذ عدد كبير من علماء نجد على شيخنا المحدث عبدالحق الهاشمي لما ارتحل من الهند ، واستقر في مكة ، منهم مشايخنا محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز والشيخ عبدالله بن حميد ، كما أخذت منهم أيضا ، ولله الحمد .

والكل يلتقي في الاهتمام والتلقي بتراث شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله تعالى ، ومن الناحية السياسية والفكرية كان علماء أهل الحديث وجمعيتهم أبرز من ناصر وأيد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل ، وقد سرد المؤلف في هذه الرسالة كثيراً من المراسلات والزيارات واللقاءات بين قادة المملكة وأعيان علماء الحديث في الهند " .

والكتاب هدية تاريخية وثائقية ، تثري تاريخ الهند العلمي ، وتضيف إليه زيادة قيمة ، قامت بطبعه شركة دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .

(٢) أضواء على تاريخ الحركة العلمية والمعاهد الإسلامية والعربية في غجرات (الهند)

هذا الكتاب يلقي ضوءً لامعاً على تاريخ الحركة العلمية والمدارس الإسلامية والعربية في ولاية غجرات ، (الهند) ، وعلى الشخصيات البارزة من العلماء والمحدثين ، الذين نشأوا في هذه الولاية ، وأسسوا فيها مدارس العلم ، ومراكز التعليم والتربية ، كما يتحدث عن بعض السلاطين الصالحين ، الذين نشأوا في هذه الولاية ، وأشهر العلماء الواردين إلى غجرات ، وعن شيوع علم الحديث في غجرات ، ووجود المحدثين فيها ، كما يتحدث عن المعاهد العربية والإسلامية القديمة والجديدة في غجرات ، كما يلقي ضوءً على مؤلفات علماء غجرات القديمة والحديثة ، والجهود التي بذلوها في مجال الصحافة الإسلامية ، وهو جهد مشكور ، قام به فضيلة الشيخ عبدالله بن إسماعيل الكافودروي ، رئيس جامعة دارالعلوم فلاح دارين تركيسر ، سورت ، غجرات .

والكتاب جدير بالمطالعة والدراسة ، والاستفادة من تاريخ العلم والعلماء والمحدثين والمربين في هذه الولاية ، ولاية غجرات .

ونحن إذ نهنئ المؤلف الجليل على إخراج هذا الكتاب في لباسه القشيب ، وبالطبعة الثانية الجديدة ، ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجزي المؤلف الكبير على جهده المشكور ، بأحسن ما يجزي به عباده المخلصين العاملين .

(٣) الحكم الأخير للاجتهاد والتقليد

هذا الكتاب باللغة الأردوية ، ألّفه فضيلة الشيخ محمد زيد المظاهري الندوي أستاذ الحديث بجامعة ندوة العلماء ، لكناؤ (الهند) ، يحتوي على فوائد علمية وفقهية لشيخ الهند الكبير المعروف بحكيم الأمة أشرف علي التهانوي .

جمع المؤلف في هذا الكتاب آراء حكيم الأمة وأفكاره حول أهمية الاجتهاد ، وحاجة التقليد ، وذم التقليد الجامد ، ومنع التلفيق بين المسائل ، كما أنه ذكر فيه آراء العلامة التهانوي ، حول أسباب الاختلاف بين الأئمة الفقهاء ، ومختصراً من تاريخ أهل الحديث والمذاهب الفقهية ، وعبقرية الإمام أبي حنيفة وخصائص الفقه الحنفي ، وحقيقة عدم التقليد مع الإشارة إلى أدلة مسائل عديدة ، نالت شهرة في المذهب الحنفي .

والكتاب يشتمل على ١٨/ باباً ، مما يتعلق بالاجتهاد والتقليد ، والرد على بعض الاعتراضات ، والفرق بين التقليد الجامد ، والتلفيق بين المسائل ، وما أشبه ذلك .

إنّ هذا الكتاب مختار من الفوائد العلمية للعلامة التهانوي ، رحمه الله تعالى ، وحقيق أن يستفاد منه ، في الأوساط العلمية والدينية .

(٤) عدُّ الآثام المعروف بأحكام الأعضاء

هذا الكتاب من تأليف فضيلة الشيخ أبي سعيد محمد ياور حسين الفاروقي الغوفامئوي من علماء ديوبند ، وقد كان ضمن أوساط الطلاب في دارالعلوم في العشرينيات من القرن الرابع الهجري ،وسنحت له فرصة الاستفادة في دارالعلوم ديوبند من العلامة محمود حسن الديوبندي ، والعلامة المحدث خليل أحمد السهارنفوري ، والعالم الجليل المفتي عزيزالرحمن ، والعالم الكبير الحافظ محمد أحمد ، والعالم الكبير الشيخ فيض الحسن ، وهكذا تخرج من ديوبند ، في عام أربعة وعشرين وثلاث مأة وألف الهجري .

إن هذا الكتاب من تأليف الشيخ أبي سعيد محمد ياور حسين ، يهدف به خدمة علمية عامة ، لأنه يتعلق بالأحكام الشرعية للأعضاء الإنسانية ، تحدث فيه المؤلف الجليل عن أحكام الأعضاء الإنسانية ، في الشريعة الإسلامية بدءً من شعر الرأس إلى أظفار القدم ، بغاية من التفصيل والوضوح ، ونبّه على النتائج السيئة التي تحدث من سوء الأعمال، وذلك في أسلوب شيق ، ممتع .

ولم يقتصر المؤلف الجليل على مسائل الأعضاء الإنسانية فقط ، بل

إنه أشار مع ذلك إلى العادات والتقاليد التي تتوافر في المجتمع المسلم ، باسم : الشرف وعلو المكانة ، ولكنها لا تمت إلى الدين بأي صلة ، بل الواقع أن ذلك يتصادم مع أحكام الدين ، كما قد تحدث عن العضو الرئيسي في جسم الإنسان ، وهو القلب ، الذي يقع فريسة الضعف والمرض ، بإساءة الظن بالناس أو بإعطاء الطريق لظنون فاسدة نحو القلب، ومخالفة قول الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) (الحجرات : ١٢) . وهكذا أعضاء جسم الإنسان ، إذا حادت عن وظائفها الأصلية ، وقعت فريسة الآثام .

هذا الكتاب ، وإن كان باللغة الأردوية ، لكنه يحتاج إلى ان ينقل إلى لغات عالمية أخرى ، وفي مقدمتها اللغة العربية .

(٥) أعلام غوفا مئو

وصل إلينا كتاب تذكرة أعلام غوفامئو ، للأستاذ الدكتور محمد صلاح الدين العمري ، رئيس القسم العربي سابقاً بجامعة علي جراه الإسلامية الهند ، تحدث فيه عن العلماء الأعلام الذين أنجبتهم غوفامئو بولاية أترابراديش الهند ، ويبلغ عددهم ٥٨/ ، وهم يعتبرون نماذج في بناء السيرة الإسلامية ، في ضوء الكتاب والسنة ، ومحاسن الأخلاق ، أرجو أن الأستاذ العمري سوف ينقل هذا التراث التاريخي بل العلمي إلى لغة عربية .

(٦) حركة الجهاد في الحكم البريطاني في الهند : دراسة تحقيقية

هذا الكتاب يشمل حركة الجهاد التي قام بها الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد في القرن الثالث عشر الهجري ، ضد الحكم البريطاني ، وأنشأ جماعة من المجاهدين ، قامت معه في إحياء هذه الحركة ، بدم نقي خالص ، ضد الإنجليز ، وقد تحدث عن هذه الحركة الجهادية سماحة العلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي في مؤلفه الجليل حول هذه الحركة الجهادية أيام الإنجليز في الهند ، وقائدها الإمام السيد أحمد الشهيد رحمه الله تعالى .

أما هذا الكتاب فقد ألفه الأستاذ المحقق خوشتر نوراني باسم : حركة الجهاد في الحكم البريطاني في الهند : دراسة تحقيقية .

أصدره إدارة الفكر الإسلامي بدلهي ، التي قامت بالطبع والتوزيع، والكتاب جدير بأن ينقل إلى لغات العصر ، وإلى اللغة العربية بوجه خاص .

●●●

إلى رحمة الله تعالى :

(١) الدكتور عبدالسلام الهراس في ذمة الله تعالى

أفادت الأنباء الآتية من مدينة فاس أن الدكتور العلامة عبدالسلام الهراس استأثرت به رحمة الله تعالى يوم الجمعة ٢٠/ من شهر فبراير لعام ٢٠١٥م ، المصادف غرة جمادى الأولى ١٤٣٦هـ ، وذلك عن عمر يناهز ٨٥/ عاماً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان العلامة الدكتور الهراس من كبار الدعاة والمفكرين في المغرب الأقصى ، عاصر كبار المفكرين والدعاة والأدباء في العالمين العربي والإسلامي ، وكان من ضمنهم العالم الجزائري مالك بن نبي ، فأشار الفقيد إلى بعض الأدباء الكبار أن يقوموا بترجمة مؤلفات مالك بن نبي الإسلامية ، التي كانت سبباً لإنشاء مدرسة جديدة في الفكر الإسلامي ، وكان فقيد الدعوة والعلم الدكتور الهراس رمزاً من رموز هذه المدرسة ، التي أنتجت أجيالاً من رجالات الدعوة والفكر الإسلامي السليم .

ويجدر بالذكر أن شيخنا ومربينا سماحة العلامة المفكر الإسلامي السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي كان ذا صلة بالفقيد الكريم في درب الدعوة والفكر والعمل الإسلامي ، فكانا يتلاقيان على ساحات وفي مناسبات دعوية فكرية متعددة ، كانت له مواقف دينية جليلة من الدعوة الإسلامية ، والإصلاح الاجتماعي ، فكان يمثل نموذجاً في ساحة العمل الإسلامي في العصر الحاضر .

ونحن إذ نتقدم بالتعازي إلى أعضاء المجتمع الإسلامي في العالم كله ، نبتهل إلى الله تعالى أن يغفر له زلاته ويتغمده بواسع رحمته ، ويملأ فراغه بتلاميذه وأتباعه ، ويكرم نزله في جنات ونعيم ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

(٢) المؤرخ الإسلامي الشهير محمود شاكر إلى رحمة الله تعالى

استأثرت رحمة الله تعالى بالمؤرخ الإسلامي الشهير محمود شاكر صاحب موسوعة : " التاريخ الإسلامي " صباح يوم الأحد غرة صفر لعام ١٤٣٦هـ ، الموافق ٢٣/ من شهر نوفمبر ٢٠١٤م ، وذلك في منزله بالرياض، المملكة العربية السعودية ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الشيخ محمود شاكر يعمل أستاذاً للجغرافية والتاريخ

الإسلامي في كلية العلوم الاجتماعية بالرياض والقصيم ، وكان قد أعد برنامجاً إذاعياً في إذاعة القرآن الكريم ، سمّاه جغرافية العالم الإسلامي، وهو من كبار المصنفين في التاريخ والفكر الإسلامي ، وكان ذا اختصاص في الجغرافية .

إنه كان من علماء الشام ، وتخرج من جامعة دمشق في عام ١٩٥٧م ، وعمل بعد ذلك مدرّساً في مدارس وزارة التربية السورية ، وبعد ذلك هاجر إلى المملكة العربية السعودية .

كان له شغف كبير بدراسة علم التاريخ وفنونه ، وبرَّز فيه ، وصنَّف في هذا الموضوع ، وتميّز بصياغة التاريخ بأسلوب مبتكر ومن المنطلق الإسلامي مع الرد على بعض الشبهات التي أثارها المستشرقون وأتباعهم في التاريخ الإسلامي وجغرافيته ، كما كان له اهتمام بدراسة علم الأنساب والبراعة فيه .

كان من كبار المؤلفين في التاريخ والفكر الإسلامي والجغرافية، وله مؤلفات كثيرة في التاريخ وعلم الجغرافية ، والفكر الإسلامي ، وما إلى ذلك ، ومما يذكر أن كتابه الجليل موسوعة كتاب التاريخ الإسلامي مؤلف وجيه ضخم ، يقع في ٢٢/ جزءً .

غفر الله له ، وتغمده بواسع رحمته ، وأسكنه بجناته ، وأغدق عليه شآبيب نعمته وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان .

(٣) رحيل والد الأخ العزيز عمر بن عبدالعزيز الندوي

في اليوم السادس من شهر جمادى الأخرى لعام ١٤٣٦هـ الموافق ٢٦/ مارس ٢٠١٥م استأثرت رحمة الله تعالى بوالد الأخ العزيز عمر بن عبدالعزيز الندوي في وطنه راتشتي ، بولاية جهارخند (الهند) ، وكان مصاباً بالفالج منذ مدة، بالغاً من العمر نحو ٩٥/ عاماً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ونحن إذ نعزي الأخ الأستاذ عمر بن عبدالعزيز الندوي على هذا المصاب الجليل ، ونوصيه بالصبر الجميل ، والاستغفار لوالده المرحوم نتضرع إلى الله تعالى أن يتناول الراحل الكريم بالرحمة ، ويتغمده بالمغفرة ، ويكرمه بالجنات والنعيم ، ويلهم أهله وذويه الصبر والسلوان .

والأخ الفاضل عمر بن عبدالعزيز الندوي أحد المدرسين في المدارس الابتدائية لدارالعلوم المنبثة شبكاتها في المدن والقرى ، وفي مدينة لكناؤ بالذات .

(٤) الحاج محمد سعيد بني إلى رحمة الله تعالى

كان الحاج محمد سعيد بني من كبار العاملين في مجال الدعوة والتبليغ ، بارتباطه الوثيق بمركز الدعوة ، وعلمائه المخلصين ، والدعاة الكبار الذين مضوا إلى رحمة الله تعالى ، وقد شهد عهود عدد من كبار علماء الدعوة والتبليغ كالشيخ محمد إلياس ، والشيخ محمد يوسف ، والشيخ إنعام الحسن والشيخين زبير الحسن ومحمد سعد ، قاموا بدور كبير في مجال الدعوة إلى الله تعالى ، والخروج في سبيل الله ، كما كانت له علاقة وطيدة بعلماء ورجال الدعوة والتبليغ في ولاية أتربراديش، وكانت صلته وثيقة بسماحة العلامة الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وفضيلة الشيخ العلامة محمد منظور النعماني ، ورجال ندوة العلماء ، انتقل إلى رحمة الله تعالى في ٨/ من جمادى الأخرى ١٤٣٦هـ ، الموافق ٢٩/ من شهر مارس لعام ٢٠١٥م ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

(٥) فضيلة الشيخ الداعية ذوالفقار البهاكلفوري في ذمة الله تعالى

(الأخ طلحة نعمة الندوي)

استأثرت رحمة الله تعالى بأحد كبار الدعاة الربانيين المخلصين فضيلة الشيخ ذوالفقار أحمد ، وكان ينتمي في العمل التربوي إلى العلامة الجليل الشيخ محمد علي المونكيري رحمه الله مؤسس ندوة العلماء ، وذلك في ١١/ جمادى الأولى سنة ١٤٣٦هـ الموافق ٣/ مارس ٢٠١٥م ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

لقد كان الشيخ من أبرز أعضاء الدعوة والتبليغ والتوجيه والإرشاد على صعيد أربع ولايات الهند ، بهار ، أوريسة ، وجهاركهند ، وبنغال ، حيث قام ببذل جهود كبيرة في الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة ، ومكافحة البدع والخرافات وإفادة الخلق ، كان أصله من سلالة أفغانية من بلدة بهاكلفور ، تثقف بالثقافة العصرية ثم اشتغل بعمل الدعوة والتبليغ، فعكف عليه ، وذلك إلى جانب اتصاله الوثيق بالشيخ عبدالرشيد الآروي خليفة الشيخ المونكيري الذي يعد من كبار المصلحين والربانيين في الهند ، فتلقى منه التربية الروحية ، وخلفه بعد وفاته في العمل التربوي ببلدة " جترا " بجوار بلدة " هزاري باغ " من جهاركهند ولم يزل يفيد الناس ، ويقوم بنشاطاته في مجال الدعوة والتبليغ إلى أن استأثرت به رحمة الله وقد ناهز الثمانين من عمره ، وتم تدفينه في بلدته " جترا " .

رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأغدق عليه شآبيب المغفرة ، وألهم الجميع الصبر الجميل .